مَطَر
نوفمبر
رواية
إيمان شامي
المحاور

لقد كانوا مقطعا سعيدا لسيمفونية حزينة عُزِفَت على أوتار الماضي ولن تُعزَفَ مجددا ...
رحلوا إذا ..
أصبحت الشوارع خالية رغم اكتظاظها بالناس، أصبح الصمت رهيبا رغم الضجيج والصخب حولي ...
ليسَت كل الأمور التي تُبكينا سيئة، ليست كل الأشياء التي تجرحنا يُسعدنا غيابها، ربما غيابها هو ما يؤلمنا ...
ليتهم يرحلون دون أن يتركوا أثرا، ليتهم يرحلون آخذين معهم ظلالهم وأطيافهم وآثار أقدامهم، ولكن الواقع صادم، فكل شيء بقي معلقا هنا وهناك، أشياء لا يمكن إزالتها فقد رُسِمَت بألوان أبدية لن يكون لها زوال .. أشياء علقت بذاكرتي وتمسَّكَت بجدرانها لتلقي لي وعودا في كل مرة أنها لن تبرح ذاكرتي حتى يضمني قبري...

إيمان شامي
من الجزائر ولاية بومرداس من مواليد 18 أوت 1997 . درست اقتصاد كمي بكلية العلوم الإقتصادية ببومرداس ، صدر لها أول كتاب عام 2018 تحت عنوان قطار على سكة المجهول ..
و رواية مطر نوفمبر عام 2019
رسامة ، هاوية للتصوير الفوتوغرافي ..

جَمِيعُ الحُقُوق مَحْفُوظَة

أي سرقة أو تقليد أو اقتباس دون ذكر المصدر ، أو إعادة طبع و نشر الكتاب أو أي جزء منه دون إذن الكاتبة يُعَرِّض صاحبه للمساءلة القانونية

عنوان الكتاب: مطر نوفمبر
المؤلف: إيمـان شامي
تنسيق الصفحات : إيـمان شامي
تصميم الغلاف: تقي الدين بن دردوخ

الماهر
للطباعة و النشر و التوزيع

تعاونية الفلاح، العلمة ولاية سطيف
البريد الإلكتروني: dar.elmaher@outlook.fr
الهاتف الثابت: 036.48.00.17
النقال : 0777.23.38.83
واتساب: 00213777233883

ISBN : 978-9931-762-88-1
D.L : 11-2019

مطر نوفمبر

إيمان شامي

رواية

الماهر للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة الأولى 2019

إهداء

إلى كل من هربوا من واقعهم ليبنوا في عالم الأوهام والخيال قصورا. إلى كل من يُكَذِّبون الواقع ويعيشون الأوهام رغم علمهم التام بكل الحقائق ...

إلى هؤلاء الذين يتألمون ويبكون، ويكتمون، ويبتسمون للعلن ويقولون نحن بخير ...

إلى كل القلوب البريئة التي خُذِلَت، إلى كل القلوب الطيبة التي ظُلِمَت، إلى تلك القلوب التي من لطفها وبراءتها صنعوا سلاحا ضدها وحاربوها حتى أزهقوا روحها ...

إلى كل من ظلم إنسانا، إلى كل من أبكى شخصا قهرا، وجعل من حياة الناس مزحة، إلى كل ظالم حقير احتقر غيره ...

مقدمة

الحياة ليست سهلة كما نريدها ...

وليست صعبة كما نتوقعها ...

إنما هي مزيج متساوي ما بين الأشياء الصعبة والسهلة، والتي تكون في صراع فيما بينها في محاولة كل منهما الفوز... وعقل الإنسان وطريقة تفكيره وكيفية تعامله مع الأوضاع، وكيفية ترتيبه للأشياء بعالمه حسب أهميتها هي التي ستعلن في النهاية أيهما سيكون له الحق في الفوز ...

في هذه الحياة .. ليس هناك ما يسمى بالسعادة المطلقة..

ولا بالحزن المطلق ..

فهما صديقان لا يفترقان ..

فلا وجود لقلب سعيد يخلوا من الحزن..

ولا وجود لقلب حزين يخلو من السعادة..

فكلا الأمرين يتواجدان دوما بقلب واحد ... فإذا ظهر أحدهما للعلن، أكيد الثاني سيكون مختبئا في ركن ما داخل نفس كل إنسان ...

فإذا أظهر الإنسان سعادة مفرطة هناك احتمالان، إما كانت له القدرة في التغلب على أحزانه وقتلها ودفنها ورؤيتها كأشياء تافهة لا تستحق، مما جعله يرى الحياة بنظرة مشرقة. وإما أنه بارع في ارتداء قناع مزيف من الضحكات والبسمات الكاذبة ليخفي حقيقته عن الناس، فيما يكون في صراع بداخله لا يدرك حجم قسوته إلا هو، تجده يبكي حيث لا يراه أحد، هذا الإنسان لديه ما يكفي من الأشياء التي تجعل منه إنسانا سعيدا ولكنه يجهلها لأن السعادة تختبئ في غرفة مظلمة بقلبه وهو فقط لا يعرف المفتاح الأنسب لفتح باب الغرفة...

(1)

ميلينا :

جالسة في محطة القطار، الأمطار تهطل بغزارة، الساعة تشير إلى السادسة صباحا، الظلام يخيم على المكان، صفير الرياح يعلو في كل الأرجاء، جالسة أنا بمكاني المعتاد أتأمل كل ما حولي في صمت ...

رغم أن عقارب الساعة لم تتجاوز السادسة صباحا إلا أن أصوات الناس امتزجت لتشكل معزوفة غريبة لا يمكن تمييز حروفها ...

عجبا كيف لهم القدرة على الكلام والثرثرة والضحك في هذه الساعة المبكرة من الصباح ...

هذا التوقيت بالنسبة لي هو توقيت الصمت والهدوء، توقيت المطر أستغله في تأمل قطرات المطر المتساقطة على الأرض وبريقها تحت أعمدة الإنارة، ومراقبة القطارات المارة بسرعة أمامنا وكيف تشق طريقها في ذلك الظلام تحت المطر مخلفة صوت صافرتها، كان أجمل منظر، وصوت صافرة القطار مع صوت

المطر، أعتبره أجمل موسيقى، أشياء بسيطة كهذه ترفع من معنوياتي وتجعلني أبتسم ..

وبعد انتظار طويل ها هو القطار المنشود يصل ليستقر بالمحطة في انتظار ركوبنا، جلستُ قرب النافذة بالجهة المعاكسة لسير القطار كما أرغب دوما، أراقب الطرقات والشوارع والجبال والأشجار وكأنها في سباق مع الزمن، تماما مثل كل تلك السنوات التي مرَّت من حياتي في غمضة عين وكأن شبح الزمان من كان يطاردها ...

أين كنت، وأين أنا الآن، زمن مختلف، حياة مختلفة، وكأني فُصِلتُ عن حياتي الحقيقية لأعيش حياة غريبة لا أعرف إلى أين ستؤدي بي طرقاتها المنعرجة، لن أقول عنها حياة بائسة ولا كئيبة.. بل حياة غامضة حيث باتت كل الأشياء أمامي غريبة.

اليوم أنا ذاهبة للجامعة، ليس من أجل الدراسة، وإنما لتوديعها.. البارحة تحصلت على شهادتي بعد خمس سنوات من الجهد والتعب واليوم سأودع ذلك المكان الذي لا أعلم إن كنت أحببته يوما أم لا..البارحة فرح بي أبي، أمي، جدي وجدتي، أخي

وزوجته.. واليوم سينزف قلبي وجعا لفراق مكان احتضن خيالي وذكرياتي التي لن تُنسى ...

نزلتُ من القطار، كانت المدينة غارقة تحت الأمطار، تسلل البرد إلى أعماقي، كما تسللت بقايا ذكريات غابرة رسمتُ تفاصيلها بين جدران الجامعة ..

أذكُرُ ذلك اليوم، عامي الأول في الجامعة ، قبل خمس سنوات من الآن، كان الجو ماطرا تماما مثل اليوم، في ذلك الصباح وقفتُ تحت زخات المطر أنتظر الحافلة، كل الحافلات المارة أمامي كانت تمر بسرعة دون أن تتوقف، انتظرت طويلا ولم أركب إلا بعد حوالي ساعة من الإنتظار. حين وصلتُ للجامعة كان وقت الدرس قد انتهى، بقيتُ أمشي بخطوات متثاقلة تحت المطر ودون مطرية ولم أكترث، لا تتعجبوا مني فأنا صديقة للمطر منذ صغري ..

منظر المطر، صوت المطر ورائحة المطر، كان لكل ذلك وقع جميل على قلبي يجعلني أبتسم رغما عني .

كنت أتمنى لو أغمض عيني لأجد اليوم قد انتهى قبل بدايته، فقد كنت أرغب في العودة للبيت بشدة، ولسبب ما كنت أكره تلك الجامعة وأكره تفاصيلها، لا شيء فيها سوى تلك الدروس

المملة، فخمس دقائق فقط منها كانت تقضي ثمان ساعات حتى تنقضي، لم يكن الدرس ينتهي إلا بعد خوضي لحرب كبيرة مع النعاس الذي كان يستعمرني أثناء تلك الدروس المملة، كنت حينها في حيرة من أمري، هل سأواصل طريقي لها أم سأعود أدراجي نحو البيت ....

وفي الأخير واصلت طريقي، وذلك اليوم الذي تمنيت نهايته هو من رسم أمامي حياة، وأحداثا، وذكريات لا أعلم في أي صنف يجدر بي تصنيفها .....

* * *

نادين :

أنا بطبيعتي لم أكن أحب مخالطة البشر، اعتزلتُ الصداقات فقد خُذِلتُ كثيرا من صديقات ظننت أنهن أخواتي لأكتشف في الأخير أنهن مجرد أفاعي سامة تلدغك بعدما جعلتك تثق فيها ثقة عمياء ..

اعتزلتُ التجمعات وكأن البشر أصبحوا مصدر رعب بالنسبة لي.. فقدتُ الثقة في جميع من حولي بعدما خُذلت من أقرب الناس، لم يكن يهمني ما يقال عني، كنت أقدس وحدتي، فما كان يهمني هو راحة بالي لا أكثر ...

ولكن حين تعرفت إلى ميلينا، صديقتي التي جعلتني أرى الحياة بطريقة أخرى ، فرغم كل ما كانت تمر به، إلا أنها من أعادت لي ثقتي بنفسي وبالحياة ...

* * * * *

في حياتنا اليومية نصادف أشخاصا، نخالطهم، نتحدث معهم، أحيانا نتأقلم معهم وأحيانا لا، أحيانا نرتاح لهم وأحيانا لا.. وكل إنسان عابر سيختفي من حياتنا، ربما لن نتذكر حتى اللحظة التي رأيناه فيها، وربما ننسى وجهه بمجرد اختفائه ...

و لكن هل حدث معك يوما وأن رأيت إنسانا شعرتَ أنك تعرفه منذ زمن بعيد، منذ زمن كان كافيا لتعرف عنه كل شيء ...

حسنا هذا ما تحدثت به ميلينا للجميع، في تلك اللحظة التي نطقت بها رأت علامات التعجب والإستهزاء على وجوههم وسمعت منهم ما يكفي لتحطيم معنوياتها، فلجأت لي أنا، صديقتها الوحيدة التي تفهمها، فأنا كنت أهتم بأدق التفاصيل في حين كان الآخرون لا يبالون بشيء.. تكلمت لي وثرثرت كثيرا ولا أزال أحفظ كلماتها وكأنها نطقت بها في هذه اللحظة فقط .

* * *

ميلينا :

شهر نوفمبر، شهر ليس كباقي الأشهر، ولشيء ما يبقى هو سيد الأشهر، لا أعلم إن كان شهر ميلادي أم وفاتي، لا أعلم إن كان قد أهداني حياة جديدة أم رصاصة مسالمة استوطنت جسدي ولم تقتله إلا بعد خمس سنوات بعد أن انتشر سمها بكل جزء مني لتقتلني دفعة واحدة حيث لا وجود لأمل آخر للنجاة. شهر نوفمبر، شهر البدايات، شهر المطر، شهر الأحلام التي لا وجود لها، زمن الذكريات التي لم تكن موجودة أصلا، والثاني والعشرين منه كان يوما لنظرة مستقبلية شقت طريقها من الخيال لتستوطن هذه الحياة الغريبة لتزيدها غرابة وغموضا ...

فبعد تردد مني، بين مواصلة الطريق نحو الجامعة أو العودة للبيت ، قررت مواصلة طريقي للجامعة أخيرا، كنت تائهة وحيدة تحت الأمطار ، لا أعرف أحد ، وكأني في كوكب آخر غريب لا أعرف تفاصيله، كنت فقط أتبع رجلاي لأي مكان ستأخذني . دخلت ذلك الجناح من الجامعة ولم يكن الجناح خاصا بتخصصي أنا، العلوم الإجتماعية، فقد كان خاصا بقسم اللغات الأجنبية، ولا أعلم حتى كيف أخذتني قدماي لذلك المكان، شعرتُ فقط بأنه علي الدخول إلى هناك، اخترت لي

مكانا ووقفت وحيدة أعبث بهاتفي، في تلك اللحظة فقط نظرتُ لتلك الزاوية، لا أعلم كيف ولكن شعرت بشيء ما جذبني نحو ذلك المكان بالذات ، لتقع عيناي على وجوه مألوفة، وجوه أعرفها منذ زمن بعيد جدا، ربما منذ ولادتي، وحتى تلك الإبتسامة صادفتُها كثيرا، ربما صدفة في طريق ما، ربما في أحلامي، ولكن لا، لم يحدث ذلك أبدا، فقد تذكرتُ كل شيء، فكل ذكرياتي وأحلامي كانت خالية منهم. وكأني كنت معهم في زمن وحياة أخرى لا أعرف زمانها ومكانها ...

تسابقَتْ أحداث كثيرة بخيالي في تلك اللحظة، وكأني كنت تائهة داخل ساعة الزمن، لا أعلم تحديدا إن كانت أرجعَتني بخطوات للخلف لتذكرني بما عشته فربما فقدت ذاكرتي، أم أنها رمتني بين أحضان مستقبل مجهول وما سأعيشه لاحقا، أحداث كثيرة وكأنها ذكريات لم تكن، أو ربما كانت أشبه بتنبُّؤات مستقبلية غامضة ... قرأتُ في عيونهم كلمات مبعثرة لم أجد لها تفسير، بحر هادئ ينذر بقدوم موجة التسونامي التي ستُهلِكُ كل شيء، شمس تنذر بأمطار رعدية، ونسمات رياح هادئة تخفي زوبعة مدمرة، شعور غريب رسم لي في أفق الخيال أنهم لن يمروا على حياتي مرور الكرام. لم أستطع المكوث هناك أكثر، فقد شعرتُ بغرابة ممزوجة بخوف

غامض.. خوف مما حدث رغم أنه لم يحدث، وخوف مما سيحدث يوما ما ...

أحسستُ لحظتها أني أُصِبت بالجنون، فطردتُ تلك الأفكار من عقلي، ركضت خارج الجناح فاقدة لأفكاري ومعبأة بأفكار متناقضة جديدة لم أجد لها تفسير ..

أذكر ذلك اليوم حين أخذتُ أثرثر لصديقاتي عما حدث، وكيف يمكن أن تصادف أشخاصا للمرة الأولى فتحس أنك تعرفهم منذ زمن، أخبرتهم عن كل تلك الأفكار الغريبة التي استعمرت عقلي، فما كان منهن سوى نعتي بالمجنونة، قالوا أنها مجرد أفكار غبية، قالوا أني أكذب وكلامي مجرد خيال لا أكثر، ما عدا نادين التي اهتمت بأدق وأتفه التفاصيل التي تكلمتُ عنها .

بعد مدة من الزمن الذي مر في غمضة عين، تحقق ما كنت أخافه، فلم يكن مرورهم على حياتي مرورا عاديا، لقد كانوا أشخاصا غرباء عني لا أعرفهم، والآن هم غرباء عني أكثر، وما بين الغرابة والغرابة تفننوا في قلب حياتي رأسا على عقب، تفننوا بقتل ما كان حيا وبإحياء ما كان ميتا..

لن أقول عنهم سيئين ولا مجرمين.. ولكنهم كانوا قتلة بارعين مسالمين، لن أقول عنهم أشرارا أبدا ، فرغم الأذى الذي سببوه لي

إلا أني فسرت ذلك بالظروف القهرية التي ربما يعيشونها والتي دفعتهم لإيلام غيرهم دون نية لفعل ذلك .

عجبا، فكيف يمكن لصدفة صغيرة أن تُغَيِّر مجرى حياة بأكملها.. صدفة صغيرة يضعها القدر في طريقك لتكتب لك حياة جديدة.. أحلاما جديدة، آلاما جديدة، وفي الأخير ستكون شخصا جديدا غير الذي كنتَ عليه ...

(2)

كلنا نتمنى، كلنا نحلم، كلنا نسبح في خيالات بعيدة عن واقعنا، كلنا نتفنن في رسم عالم وهمي نحقق فيه كل المستحيلات التي لن تحدث في حياتنا الواقعية، فكم نحن بارعون في إسعاد نفوسنا بأنفسنا ولو بمجرد خيالات عابرة تُسعِدنا للحظة ثم تختفي.. ولكن بكل بساطة نتمكن من إحيائها وقت ما أردنا ...

يؤلمك جدا عدم الوصول إلى ما تريد، يؤلمك كون تلك الأمنيات لن يكون لها وجود إلا في الخيال، يؤلمك أن بعض الأحلام لن تصبح واقعا إلا في المنام ..
و لكن مع مرور الوقت تنسى وتبني في طريقك أشياء جديدة لعلها ستكون جزءا من حياتك ...

الأشد إيلاما والأصعب نسيانا هي تلك الأشياء التي أردتَها وانتظرتها وبالفعل أصبحت بين يديك، ولكن قبضتك لم تكن قوية بما يكفي للتمسك بها، وكنت أنت السبب في ضياعها ورحيلها.. تلك الأشياء هي الوحيدة التي تبقى راسخة بذاكرتك دون غيرها

من الأشياء، تلوم نفسك ليلا ونهارا، تقول يا ليتني فعلت ما لم أفعل، ويا ليتني لم أفعل ما فعلت، فترسم في طريقك أمنية مستحيلة وهي ... يا ليت الزمن يعود للوراء لأغير كل شيء ...
صدقني فالزمن لن يعيد أدراجه من أجلك، الزمن مهمته الوحيدة إعطاءك فرصة والمضي قدما دون أن يلتفت إليك ليرى ما إن كنت قد استغللت تلك الفرصة أم لا ...

* * *

أجلس وحيدة بين جدران الجامعة في هذا اليوم الماطر..
فطالما كانت الأمطار رابط وصل بين الماضي والحاضر، فتلك القطرات تتساقط محملة بتفاصيل كل حدث مر بحياتي، أحداث تعني لي كل شيء بينما تعني للآخرين لا شيء، تبدوا لهم تافهة فقط لأني أنا من عشتها وليس هم ...
عامين من التمني والإنتظار المتعب جرا معهما عامين من الندم والأسى والخذلان، فطالما كنتُ قد وضعت حدا فاصلا بيني وبين آمالي، لم أكن أسمح لنفسي بأن تتمنى أشياء أعلم أنها في النهاية لن تكون جزءا من حياتي...

كنتُ قد وضعت قاعدة في حياتي، الكثير من الأمل يجر خلفه جبالا من الحسرة والخذلان، ولكن شيء ما كسر تلك القاعدة ورماني داخل إعصار من الإنتظار الملون بألوان الحزن والدموع.. كنت أنتظر ولا أعلم ما الذي أنتظره، كان صمتي يقتلني، وكانت عيناي تترجمان كل شيء، ولكن لم يكن هناك من يفهم كلماتي الصامتة، فقد كان مجرد حلم ضائع، حلم رأيته بين يدي الكثير ممن حولي فيما كنتُ أنا أستشيط غضبا وكأني أريد قتل كل من اقترب، ولكني كنتُ في كل مرة أقف عاجزة مكتوفة اليدين ولشيء ما لا يمكنني الإقتراب ...

شيء كان أشبه بالخيال حين دق الأمل حياتي يخبرني أن ذلك الحلم ليس ببعيد، هو في زاوية ما هنا فقط، رأيته يركض نحو حياتي كشهاب كسر حلكة الظلام بعد طول انتظار، شهاب ولكنه استقر في منتصف سمائي ينتظر ما إن كان بإمكانه أن يتحول لقمر أو نجمة، ولكني أشعلتُ نارا ونفثتُ دخانها الأسود ليتصاعد نحو السماء ليحجب ذلك النور عني ..

بكيتُ ألما وحرقة على فعلتي التي لم أعلم حتى ما كان سببها.. بكيت وبكيت وحلقتُ نحو السماء وأزحت الدخان، لكن لا

وجود لأثر ذلك الشهاب، حلقت حتى تهت بين كواكب الكون باحثة عنه، ولكن لا أثر له..

ولا زلت أتساءل ، هل ذلك الدخان من قتله وجعله يختفي، أم كان مجرد شهاب عابر فحسب وقد رحل لسماء جديدة ...؟

هكذا كانت نهاية حلمي..

أنا من ضيعته بيدي، في الحقيقة لا أزال أراه يلمع في حياة الكثير، فأراقبه بعيون دامعة وأنا أراه يتنقل من سماء لسماء، ما عدا سمائي أنا ، فقد رسم عليها خطا أحمرا ممنوع الدخول ...

و شاء القدر أن يرميني في دوامة من القهر والندم ...

و لن ينفع الندم بعد فوات الأوان..

فكل شخص وجب عليه أن يحسن التصرف مع كل ما يصادفه في حياته، من أشخاص وأشياء ومواقف، فتصرف صغير خاطئ قد يضيع حلما، يحطم مستقبلا، يجعلك تخسر أشخاصا، تصرف صغير فقط قد يقلب حياتك بأكملها، إما للأفضل، وإما للأسوأ، وأنت الوحيد من ستختار وترسم الطريق ...

* * *

المشكلة التي كنت أعاني منها في حياتي، هي أني لم أكن أعرف كيفية التعامل مع الناس، ليس كل الناس، وإنما الأشخاص الوحيدين الذين لا أتمنى خسارتهم هم أول من أتسبب في خسارتهم بتصرفاتي المتسرعة والمتهورة ....

شاء القدر أن يلاقيني بهؤلاء الأشخاص الرائعين، لا أعلم في أي فئة يجدر بي تصنيفهم، أصدقاء، جيران، إخوة، أم غرباء، أم كانوا مجرد أشخاص خياليين لم يكن لهم وجود إلا بين جدران خيالي ..

كانوا مميزين جدا، مميزين لدرجة أنه لا تكفيني الثمانية والعشرون حرفا لوصفهم، كانوا أكثر من إخوة، أكثر من أصدقاء، رغم أنهم مجرد غرباء، حروفهم البريئة كفيلة لأن تسعد مدينة بأكملها، أو ربما العالم بأسره ..

أحسستُ للحظة أنهم أشخاص من صنع خيالي قد فروا من مخيلتي ليستعمروا ربوع هذا العالم ...

فكيف يمكن لكلمة صباح الخير أن تغير مزاجك المعكر بين لحظة وضحاها، وأن ترفع بك من أعماق بحر الكآبة لتحلق بك في سابع سماء السعادة ..

لن يحدث هذا إلا إذا كان قائلها مميزا لديك ...

لم يكونوا أشخاصا عاديين أبدا، فقد كانوا سعادة تمشي على الأرض ....

كنت أشكر الله ليلا ونهارا، فقد أرسل في طريقي أشخاصا غيروا نظرتي للحياة، جعلوني أراها من جوانبها المنيرة بعدما كنت أظنها مجرد مقبرة مظلمة لا أمل فيها للنجاة ..

جعلوني أحب كل ما كنت أكرهه، فحتى الدراسة التي كرهت منها وتخليت عنها وقررت المكوث في البيت للأبد، فبعد محاولات من أبي وأمي وأخي لأتراجع عن هذا القرار إلا أن ذلك لم يجدي نفعا، فقد كنت عنيدة.. عنيدة بشكل رهيب يجعل الكل يهاب إقناعي أو مجادلتي في شيء ..

مكثت نصف عام بالبيت دون دراسة، ولكن في الأخير أقنعوني بالرجوع إليها، فرجعت واستدركت كل ما فاتني، وكانوا هم السبب الذي جعلني أواصل دراستي، كانوا هم السبب الذي جعل البسمة تشرق على وجوه أبي وأمي وأخي اللذين كادوا يحلقون للسماء من فرط فرحتهم حين أخبرتهم بقرار رجوعي .. استغربوا لأمري ، لكن لم ألبث أن أخبرتهم عن هؤلاء الذين أقنعوني وجعلوني أرجع لصوابي في آخر لحظة، فما كان من عائلتي إلا الدعاء لهم ...

كل ما تمنيته أن يديمهم الله بعالمي، فقد كنت أحسهم جزءا لا يتجزأ من عائلتي، من أسرتي..

كنت خائفة من رحيلهم يوما ما، خائفة من أي تصرف قد يبدر مني في لحظة أفسد فيها كل شيء، فالكل يعرفني بتصرفاتي المتسرعة التي سرعان ما أندم عليها لاحقا وأغرق في دوامة من التفكير، لماذا فعلت، وماذا عملت ...

كل من يعرفونني قد آلفو تصرفاتي تلك، واعتادوا عليها فلم يعد الأمر غريبا عنهم، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لغرباء عني. فقد يرحلون عند أول خطأ يبدر مني ودون معرفة حقيقة نفسي. حقيقة أني مجرد إنسانة تتصرف بعفوية لا تجيد التصنع، وبعض تصرفاتي وكلامي لا يأتي إلا من تسرعي الذي يجعلني أتكلم دون التفكير في العواقب والنتائج الوخيمة ..

* أذكر في أحد الأيام ، ضحكتُ كثيرا، كثيرا جدا، فقالوا " لا تضحكي كثيرا، اتركي قليلا للغد" .. لقد أتى الغد، ولكني لم أستيقظ، لم أرى الحياة بعدها، ويا ليتهم علموا أنه كان اليوم الأوحد الذي ضحكت فيه ... ومن قلبي ...*

* * *

الأشياء التي نخاف من حدوثها هي الوحيدة التي تُسابق عقارب ساعة الزمن لتحط رحالها على أرض عالمنا، وكأن خوفنا من حدوثها هو بمثابة مغناطيس لها يجذبها ليثبتها على أرض الواقع ويجعلها حقيقة مثبتة ..

ربما هو تحذير لنا على أن لا نخاف، أن لا نتوقع الأسوأ أبدا.. فتوقعاتنا السلبية تلك هي التعويذة القاتلة التي تجلب البؤس والشقاء أينما كان وكيفما كان ...

أذكر جيدا تلك الأمسية اللعينة ..

حدث سوء تفاهم بسيط ، بسيط جدا ، بل أكثر من تافه ..

أفكار كثيرة متناقضة تداخلت بعقلي، أفكار جعلتني أشعر بتشتت و بغضب عارم يجتاح نفسي، فتكلمت، وأي كلام تبا.. فقد كان مجرد إهانة لا أكثر ..

إهانة لهم، ودمار وندم لي ..

أنا من تفوهت بذلك الكلام التافه دون قصد مني، لا أعلم كيف قلتها لهم، ولا أعلم ما الذي دفعني لقولها، أحسست أنه شيء ما دفعني لأتكلم رغما عني ..

" أنتم مجرد أطفال، من الأفضل لكم أن تبتعدوا عن عالمي فأنا لا أحتمل رؤيتكم ... " و غيرها من الكلمات الجارحة ..

قلت تلك الكلمات .. ولكن شعرت بزلزال تحت قدمي، شعرت بأن الدنيا اسودت في وجهي فجأة، شعرت أنه مجرد فخ لعين وها قد وقعتُ فيه لينفجر العالم ضاحكا من حولي ...

ما الذي دفعني لقول ذلك ؟

رأيت علامات التعجب والإستغراب ترتسم على تفاصيل وجوههم.. خيَّم عليهم الصمت للحظة وكأن ألسنتهم عُقِدت عن الكلام.. والدهشة تغلف وجوههم البريئة، وكأنهم كانوا في محاولة لقول أشياء كثيرة ولكن شيء ما جعلهم في عجز تام عن النطق بحرف ...

صمتوا وصمتوا وكأنهم يحاولون استيعاب كلماتي، ثم ما لبثوا أن انطلقت رصاصات كلامهم فجأة ..

كلام ، وأي كلام كان، ليته كان كلاما فحسب، لقد كان زجاجا حادا متناثرا مصوبا نحوي من كل جانب، لقد كان رصاصات قاتلة أطلقت علي من كل زاوية، كان كلاما جارحا قتل كل جزء مني ..

لم أبكي أمامهم، لم أظهر لهم ألمي، وإنما وقفتُ أمامهم متهجمة كشخص قاسي القلب بلا إحساس، تظاهرتُ أمامهم بالقوة والعناد، فيما كنت محطمة من الداخل ..

تجمعت الدموع بعيناي، فركضتُ بعيدا عنهم، لم أكن أريد أن أبدوا لهم ضعيفة، لم أسمع لدموعي اللعينة أن تخذلني أمامهم ..

مسحت دموعي، استجمعت كامل قوتي وعدت إليهم لأكمل حربي ..

سمعتُ منهم ما يكفي لتدميري، سمعتما يكفي لقتلي ودفني .

و حتى كلامي لم يكن قليلا، كلامي كان أقسى من كلامكم أضعاف المرات، رغم أنه كان كلاما مزيفا، لم أقل أي كلمة من قلبي ولكني فقط كنت في محاولة لقول شيء ولكني كنت أنطق بشيء معاكس ..

والغريب في الأمر، كنا نصرخ ونتفوه بذلك الكلام الجارح، وفجأة ننفجر ضحكا..

كنا نضحك ونضحك ثم نواصل صراخنا ثانية، أظن أنها حرب مأساوية كوميدية، فلا إسم يروقها غير ذلك ...

مخطئ من قال إن أردت معرفة حقيقة إنسان فاسمع ما يقوله وهو غاضب، لأنه سيتفوه بأصدق كلام ...

فأنا حين يتملكني الغضب .. فإني أزيد من دفن الحقيقة لأتفوه بخرافات لا مكان لها بقلبي ..

لا أدري كم من الوقت أمضيته جالسة هناك بين جدران الجامعة . جلست مدهوشة مصدومة غير مستوعبة لما حدث بالتحديد ولسعات تلك الكلمات تتسابق بخيالي كسم فتاك يجعلك قتيلا على قيد الحياة ..

بخطى متثاقلة ونفس تائهة خطوت نحو محطة القطار، لأجدهم هناك، وركبوا معي في نفس القاطرة ، كانت نظراتهم مصوبة نحوي وشرارات الغضب تتطاير من عيونهم ..

لا أدري كم من الوقت استغرقه القطار في السير، أحسست أنه دهر طويل من الرعب والخوف والحزن والندم والكثير من الأشياء التي جعلتني أصاب بالإنهيار ...

عدت للبيت وبريق الدموع لا يفارق عيناي، استقبلني ابن أخي الصغير صاحب الثلاث سنوات عند باب ساحة المنزل، ابتسم معي وركض نحوي مادا يديه لي بكل براءة، فوجدت نفسي أبتسم له، حملته بين ذراعي واحتضنته، كان يضحك ويتكلم كلاما لم

أفهم منه شيء سوى اسمي اينا، كما يناديني هو، عجبا لهذا الصغير البريء كيف يجعلني أبتسم وأنا في آخر مراحل حزني، نعم إنهم الأطفال، سعادة تمشي على الأرض ...

أخذته أمه لتطعمه، أما أنا فدخلت غرفتي، صليت صلاتي، ثم انزويت في الشرفة أراقب منظر الغروب، وتلك السحب التي تجمعت في السماء معلنة عن زوابع مطرية قادمة ...

أحداث هذا اليوم تتأرجح بذاكرتي كأرجوحة تحركها رياح عاصفة تمنعها عن التوقف ...

شهقات مؤلمة تنبع من أعماقي، كشهقة ما قبل الموت، وجدت نفسي أنفجر باكية، بكيت وبكيت حتى كادت دموعي تجف ...

سمعت أمي تناديني لتناول العشاء ولكن أخبرتها أني لست جائعة.. لم أكن جائعة فقد تناولتُ من المرارة ما يكفي لسد جوعي دهرا كاملا ..

أخذتُ أفكر فيما فعلت، تخيلتُ فقط نفسي لو كنت مكانهم وكانوا هم البادئون بتلك الكلمات المهينة والجارحة، كيف ستكون ردة فعلي حينها ..

أحسستُ أني ظلمتهم، أني أحرجتهم بتصرفاتي وكلامي المتهور، أحسست أني مثلت دور الشريرة بكل براعة دون الإكتراث لمشاعرهم ...

فكرت وفكرت كيف سأصلح خطئي، كيف سأمحي هذا اليوم من مذكرة الحياة، ليتني أعود لتلك اللحظة لأصمت وأمضي في طريقي دون النطق بحرف ..

حملت هاتفي، بيد مرتعشة كتبت وكتبت وكتبت حتى كاد الهاتف ينتحر من بين يدي ..

و لأول مرة أجد نفسي أكتب رسالة اعتذار، نعم إنها رسالة اعتذار، أول مرة أعتذر فيها من أحد، فطالما كان الإعتذار شيئا ثقيلا علي، فقد كنتُ أعبر لكل شخص عن اعتذاري بطرق شتى حتى لو كلفتني شهرا، ولكن ولسبب ما أعجز عن كتابة كلمة اعتذار أو قولها ، ليس ترفعا مني أو تكبرا ، و لكن لسبب أجهله.

نعم لقد بعثتها لهم رغم الإضطراب والخوف الذي حل بي لحظتها.. وبصيص أمل كبير لاح لي في الأفق، لعله خطأ بسيط وسيُمحى من صفحة الحياة، ولكن التجاهل كان سيد الموقف،

شعرتُ أني قد دُست على كرامتي بذلك الإعتذار ولعنتُ تلك الرسالة ألف مرة ...

ارتفعَت درجة حرارتي، لم أستطع النوم من شدة المرض، ها قد حزنت فأتى المرض الجميل ليواسيني ...

كان الصقيع يلف قلبي رغم أنه بالداخل كان يحترق، قلبي رماد مغلف بثوب الجليد .. كان الظلام يخيم على المكان، على ذاكرتي.. وعلى قلبي ونفسي ..

و حتى أعمدة الإنارة بالخارج انطفأت وكأنها تواسي حالي ..

لا شيء بالخارج سوى ظلام وأمطار غزيرة تقرع زجاج نافذتي وكأنها تذكرني بأني لست الوحيدة التي أبكي، فالسماء كذلك تبكي معي ..

بكيت كثيرا تلك الليلة العاصفة، تماما كالعاصفة التي دوت على حياتي فجأة، بكيت كما لم أبك من قبل ..

ورغم ذلك تفاءلت، ربما كل شيء سيكون بخير ...

لم يكن أي شيء بخير بعدها، فقد أصبحتُ في كل خطوة أخطوها أسمع صراخهم وكلماتهم القاسية، لم يمر علي يوم دون التعرض فيه لإحراجهم أمام الملأ، وبكل بساطة تم تحويلي لمهرجة بائسة من حزنها وألمها صنعوا مسرحيات هزلية كثيرة ...

كلامهم لم يكن كلاما عاديا، كان بمثابة رصاصات تزهق روح أي شخص يسمعها، فكل حرف منها يحمل بين تفاصيله آلاف معاني الحقد والكراهية ...

فما الذي حدث لي حينها، لقد انهرت، تحطمت، تألمت لأجل نفسي التي ليس لها أي ذنب، فما الذي فعلته أنا حتى أتلقى كل تلك الإهانة، لقد كرهت نفسي حينها، كرهت كل المحيطين بي.. ماتت ثقتي بنفسي وأحسست أني مجرد بلهاء بلا شخصية ولا ثقة بالنفس، لقد أصبحت أشمئز من الحياة بمجرد تذكر إهاناتهم القاتلة، أصبحت أخاف أن أخطوا خطوة خاطئة تأخذني لأماكن تواجدهم، أصبح يخيل لي أن عالمي مجرد فيلم رعب ، هم الأشباح وأنا الضحية التي ليس لها طريق نجاة، بكل بساطة، قتلوني وأنا لا أزال على قيد الحياة ....

كنت في كل مرة أعود للبيت محملة بعبء ثقيل يرهقني، إما أن أنعزل بغرفتي أو أجلس بساحة المنزل تحت الأمطار الغزيرة غير آبهة لشيء، لم أعد أجالس ابن أخي الصغير، لم أعد أجلس بجانب جدي وجدتي اللذان كانا يمطران علي بحكاياتهم الشيقة، لم أعد أجلس بالمطبخ مع أمي لنتحدث كما اعتدت، لم أعد أجلس مع أبي أسأله عن عمله والإستماع لفكاهاته، ولا أخي وزوجته

اللذان لم أكن أكف عن الثرثرة معهما، اشتقت لهم ولكن هناك حاجز يمنعني من الجلوس إليهم، حاجز ما وقف بيني وبين كل البشر وكل الأشياء المحيطة بي، كل ما كنت أستطيع فعله هو الغوص في بحر من التفكير العميق لأصحح كل شيء بخيالي، ويا ليت الخيال يصبح واقعا يوما ما ...

تفاقم الأمر كثيرا، وزاد تماديهم في تصرفاتهم القاسية .. لم أجد من حل آخر غير تلك الرسائل التي كنت أبعثها لهم في كل مرة أتلقى أذى منهم، أعترف أنها لم تكن رسائل عادية، إنما كانت مجرد إهانات ودعوات شر، كانت كلماتها قاسية لدرجة أني حين أعيد قراءتها أشعر بشيء ما يمزق قلبي فأنفجر باكية، وأدعو على نفسي، أدعو بأن تنعكس تلك الدعوات علي وأن لا يحدث لهم شيء، والأكثر من ذلك أدعو الله أن يسعدهم ويحفظهم من كل شر، فرغم إيذائهم إلا أني لم أتمنى يوما رؤيتهم يتألمون ....

"" أمشي في طريقي ...
لا أعلم أي مصير ينتظرني ...
في قلبي أمل ما ينادي ...
لا تقلقي فكل شيء سيكون بخير ..
فصدقت وواصلت طريقي ...
طلقات نار ... رصاص ... تبا ..
صراخ عالي يخترق مسامعي ..
لا أكاد أستوعب .. الصوت مألوف عندي ...
مجرد صوت لحلم ضائع تعثر بين طرقات حياتي وضاع ..
ضاع ورحل بعيدا رغم أني أراه كل يوم ..
رحل رغم أنه لم يكن موجودا أصلا، إلا في عالم نسجته بخيوط من خيالي ..
صوت اعتدت سماعه، اعتدت على تفاصيل تلك الكلمات القاسية، اعتدت على وقع طلقات رصاص حروفه حرفا حرفا..
لم أمت، نعم لم أمت لحظتها، لأني مت قبل عدة سنوات و بعض الأيام وقليل من الساعات و بضعة دقائق، في تلك اللحظة التي رميت فيها بنفسي داخل قبر ظننته الحياة ...

أُصرخ يا حلمي القاسي، أُصرخ يا أيها الأمل المعدوم، أصرخ فأنا قد أسميتك المستحيل، فلا صراخك يقتلني ولا صمتك ينحرني ...

أحاول فقط إيجاد كلمات مناسبة أفرغ بها حملا أرهق روح قلبي.. رسائل ... كلمات قاسية خالية من الرحمة ... كراهية ... بغض ... شر ... عجبا فرغم قسوتها إلا أنها تبكي ...

لا تفسروا القسوة بالقسوة، تأملوا فقط تفاصيل الحروف، فرغم القسوة التي تحملها إلا أن خلفها دموع ، ألم دفين لم يعرف طريق الخروج ...

عبارة عن ألم وعتاب مغلف بغلاف القسوة ، عذاب ... دمار ... روح منكسرة ... لا كراهية ... لا قسوة .. "

* * *

نادين :

هكذا كانت ميلينا، فرغم الأذى الذي كانت تتلقاه منهم في كل مرة إلا أنها كانت تغضب للحظة، لم تكن تجد من وسيلة للتصرف، فكانت تفرغ بكامل غضبها في رسالة ثم تندم لاحقا، إذ يتحول كامل غضبها وندمها إلى حزن عميق فيما بعد، حزن تمكن من رسم تفاصيله على وجهها بكل وضوح ...

أخبرتها في كل مرة أنهم لا يستحقون كل هذا الحزن والعناء، أخبرتها أنهم يستحقون تلك الكلمات القاسية، فما فعلوه بها لم يكن بالأمر الهين، ولكنها لم تكن لتقتنع ...

لا أعلم بالتحديد ما الذي يقربونه لها، كل ما أعلمه أن مكانتهم العالية بقلبها جعلتها تتغاضى عن أفعالهم وتصرفاتهم ولا تتذكر منهم إلا ما هو جميل ..

تتساءلون ما الذي جعلهم يتغيرون لهذه الدرجة ويستمرون في إيذائها رغم كل محاولات اعتذارها ، لا أعلم، ولا أحد يعلم تحديدا. ربما تسرعها وإهانتها لهم في بادئ الأمر جعلتهم يتغيرون، جعلتهم ينظرون إليها بطريقة سلبية دون معرفة حقيقة نواياها، ولكن ليس لهذه الدرجة، فقد تمادوا في الأمر كثيرا ، كثيرا جدا لدرجة أني لاحظتُ بريق الخوف في عينيها كلما لمحتهم من بعيد،

لاحظتُ تغير تصرفاتها المفاجئ وانقطاعها عن الكلام كلما رأت خيالهم أو شخصا يشبههم .. حسنا، فما كان يميزها هو طيبتها ونيتها الحسنة وعفويتها وخجلها، لم تكن تنافق، لم تكن تكذب، لم تكن تتصنع في أحاديثها وتصرفاتها مثلما تفعل أغلب فتيات هذا الزمان ..

ميلينا كانوا يفترسونها بكلماتهم القاتلة في كل مرة ، فيما كانوا يتصرفون بطريقة معاكسة مع الجميع، رغم أن أغلبيتهم مجرد شياطين متنكرة في ثوب ملاك بريء، ولكن أغرتهم المظاهر وصدقوا ما تراه عيونهم من براءة مزيفة، براءة مخادعة تخفي خلفها أحقر البشر وأكثرهم فسادا، لقد رفعوا من شأن هؤلاء، فيما جعلوا من ميلينا مجرد إنسانة سيئة لا تستحق أي تقدير ..

نحن نعيش وسط مجتمع تافه ، مجتمع جعل من الإنسان الطيب مجرد أداة للإستغلال، وبعد ذلك ينعتونه بالغبي ...

مجتمع يرى الإنسان الطيب صاحب النية الحسنة أنه مجرد إنسان غبي تافه بلا شخصية ولا كرامة، فقط لأنه يسامح.. يغفر الزلات.. ينسى الإهانات.. يعتقدون أنه ضعيف فيتفننون في إيذائه بشتى الطرق، هم فقط يجعلونه مجرد وسيلة لإظهار أنفسهم وقوتهم أمام الآخرين، يظنون أنه عاجز عن الدفاع عن نفسه، فيما تكون حقيقته أنه مجرد إنسان لا يطاوعه قلبه في إيذاء غيره حتى لو تسببوا هم في ذلك ...

مجتمع حقير ، يكرهون العفوية، يكرهون الصدق، يستهزئون بكل إنسان عفوي خجول صادق ويجعلون منه أداة للسخرية، فيما يقفون بكل انبهار وبأذان كلها صاغية لأفواه نسجت من الأكاذيب ما يكفي لإسعادهم، ومن التصرفات المتصنعة ما يكفي لتمثيل آلاف الأدوار السينمائية أمام أعينهم دون أن ينتبه الأغبياء أنه مجرد زيف، فقط لأنهم يحبون سماع ما يرغبون في سماعه لا ما يجب عليهم سماعه ...

هكذا أصبحنا، صاحب النية الحسنة لا يمكنه العيش وسط هذا الكم الهائل من أشباه البشر، فحتما سيفترسونه، ولكن صاحب الخبث والمكر والحيلة يهابونه ويجعلون منه سيدا لهم ...

مجتمع غبي يدوس على صاحب النية الحسنة تحت الأقدام، فيما يرفع القبعة لكل آثم متنكر محتال ...

* * * * *

(3)

ميلينا :

حاولتُ إصلاح خطئي مع هؤلاء الأشخاص، أعترف أني بالغت كثيرا بتصرفي القاسي معهم يومها، لم يكن الأمر يستحق لأقيم تلك الحرب التي لا أزال أتساءل عما أصابني وما الذي دفعني لأقلب الدنيا رأسا على عقب..

لم يكن تصرفي قاسيا معهم بقدر ما كان طفوليا، وقد سمعت هذا منهم آلاف المرات، فتصرفاتي الطفولية العشوائية و المتهورة هي من ألقت بي إلى الهاوية، ورغم ذلك لم أغير من نفسي ولن أغيرها، ومن لم يرغب بوجودي بين جدران حياته فليأخذ حياته وليرحل عني فأنا لن أبرح مكاني أبدا ...

فعلتُ ذلك، الكل رأى قسوتي، لكن لا أحد قد رأى دموعي، لا أحد عرف حقيقة نواياي ...

بررتُ لهم موقفي ولم أجد آذانا صاغية ولا عقولا لتفهمني، فقد كنتُ مجرد إنسان أبكم وكانوا كشخص أصم ، فلا جدوى من كلامي ولا أمل لاستماعهم ..

في كل مرة تزيد قسوتهم عليَّ، الأيام تمر وتمر والإنتظار يطول، مرت أيام وشهور، ثم عام، وعام آخر، عامين من الإنتظار لعل شيئا ما سيتغير، نعم فكل شيء كان يتغير، ولكن للأسوأ ...

" يستمرون في إيلامنا، يستمرون في تحطيمنا ظنا منهم أنه بالأمر الهين، هم فقط لا يعلمون حجم الدمار الذي تُخَلِّفه كلماتهم وتصرفاتهم بداخل قلوبنا... "

أذكر تلك الأمسية اللعينة، كانت أمسية هادئة كهدوء البحر في يوم صيفي مشمس، كان كل شيء على ما يرام، أنا ونادين نتمشى والضحكات لا تفارق وجهينا ..

في لحظة غير متوقعة سمِعنا صوت صراخ عالي، صراخ انفجر كأنه بركان مسلط على مدينة ليحرقها بأكملها، لسعات تلك الكلمات لم تكن مسمومة فقط، وإنما كانت قاتلة، زلزال ضربني من أعلى رأسي لأخمص قدمي، شعرت بالدماء تجمدت في عروقي، شعرت بأنفاسي تكاد تخنقني ..

هلا توقفتم رجاء فلم يعد يفصل بيني وبين الموت سوى خطوتان ودقيقة وبضعة ثواني، هلا أخفضتم أصواتكم، فدوي أصوات

كلماتكم دمر المدينة بأكملها حولي، القطار انعرج عن طريقه وها هو يسير نحوي، الطائرة المحلقة في الجو أراها مصوبة باتجاهي، المباني المحيطة بي تهدمت وها أنا بين ركام لا أقوى على النهوض فقد بُتِرت قدماي، لا أقوى على الصراخ فشخص ما غرز خنجره بحنجرتي ..

أنا فقط أتهاوى في فضاء واسع إلى مالا نهاية ...

كل ذلك حدث بداخلي، كل ذلك الدمار هدمني من الداخل فيما كنت أبدوا من الظاهر أني مجرد إنسان لا يهتم، وقد ضربتُ بكلامهم عرض الحائط وكأني لم أسمع شيء، والأكثر من ذلك رسمتُ ابتسامة ساخرة على وجهي، لا لن أنهار أمامكم لن أترجاكم فزيدوا من إيذائي فأنا لست إنسانا هشا، أنا عشر أشخاص يحمل كل واحد منهم من القوة ما يكفي لتدمير الأرض بأكملها ...

نادين :

فحتى أنا التي لم أكن المعنية بالأمر شعرتُ بفشل يسري في كامل جسدي، فماذا أقول عن ميلينا التي لم يكن ذنبها آنذاك سوى

نص رسالة قصير تخبرهم فيها أنها تود إهداءهم تلك الرواية التي قامت بكتابتها ...

كتَبَت عن أحلامها كتبَت عن آلامها، عن حزنها وسعادتها.. وكتبَت عنهم سطورا مخفية غامضة لن يفهمها سواهم ..

شهور وهي تحترق لأجل إهدائها لهم، لم تكن تعلم حتى السبب الذي جعلها تفكر في ذلك، فقد أخبرتني أنها تتمنى فقط أن يقرؤوا كتاباتها، وحتى أنا وصديقاتنا شجعناها على فعل ذلك فقد كان الحل الأوحد لمُصالحتهم ..

كانت تتقدم خطوات نحوهم ولكنها تتسمر في منتصف الطريق وتعود راكضة إلي والخوف يلمع بعينيها، تمد لي بالرواية طالبة مني إعطاءها لهم، فهي لا تستطيع فعل ذلك، وبمجرد تقدمي ببعض خطوات تناديني تطلب مني الرجوع، تنتزع الرواية من بين يدي وتخبؤها بحقيبتها وتقول أنها من المستحيل أن تفعل ذلك ...

تكرر هذا الحدث آلاف المرات، وحين استسلمت قررت أن تبعث تلك الرسالة تسألهم ما إن كان بإمكانها تقديم الرواية لهم، ولم تقم ببعث تلك الرسالة إلا بعد آلاف المحاولات والتراجع في آخر لحظة.

لم أكن أفهم سبب وصول ميلينا إلى تلك الدرجة من الخوف منهم. لكن اليوم فهمت وأدركت كل شيء، فالأمر لم يكن بتلك السهولة

فبعد سماعي لذلك الصراخ الذي هز جسر محطة القطار أصبحتُ حتى أنا أخاف من لقائهم.

كنت أراقب ردة فعل ميلينا جراء ذلك الكلام، فقد توقفَتْ عن الكلام فجأة وكأن شخصا ما قطع لسانها، وجدتُ ضحكتها الحقيقية تتلاشى لترتسم مكانها معالم الحزن، لكنها ما لبثت أن رسَمت ابتسامة مزيفة على وجهها ، ولكن بريق الدموع بعينيها فضح كل ما تراكم بقلبها من ألم، رغم ذلك تظاهَرَت أن الأمر لا يعنيها وواصلت مَشْيها ، وذلك الصراخ لم يتوقف بعد ...

شعرتُ بالأسى مما حدث، نطقتُ بعبارة حتى أخفف عنها ولكنها ابتسمت وقالت أنه بالأمر العادي ولم يكن يهمها إطلاقا ما الذي حدث، وانطلقت في الضحك والثرثرة كعادتها وكأن شيئا لم يكن ...

" أنت تضحك بأعلى صوتك، تمزح، تبدو قويا أكثر من اللازم، تبدو واثقا، تبدو غير مبالي بشيء، ينعتونك بالمتكبر أحيانا، وأحيانا بالمجنون، ولكن حقيقتك أنك مجرد إنسان تأذى أكثر من اللازم، أنت تبكي في صمت وتحترق ...

قوتك التي تظهرها للغير تخفي خلفها طيفا ضعيفا لإنسان تحمل ما فوق طاقته، أنت من الظاهر غير مبالي بشيء، ولكن الحقيقة أنك تهتم لأدق التفاصيل ..

من يراك يظن أنك اتخذت من السعادة والمرح عنوانا لحياتك، من يراك يحسدك حتى على تلك الضحكات الكاذبة التي لا أحد يعلم ما تخفيه خلفها إلا أنت ...

لا أحد يعلم أنك مجرد حطام، وأن قلبك مجرد دمار وركام خلفته حروب الحياة، أنت مجرد رماد من بقايا حرائق القهر والخذلان، رماد متنقل بين دروب الحياة لا يعرف حتى هدف وجوده على هذا الكوكب اللعين ... "

وصل القطار إلى محطتنا المنشودة، واصلنا سيرنا على الأقدام لقريتنا، رغم أن ميلينا لم تتوقف عن الضحك والثرثرة طوال

الطريق إلا أني كنت أعلم أنها تخفي خلفها جبالا من الحزن الدفين...

ـ ميلينا، أمتأكدة أنك بخير ؟

* وما الذي يمنعني من أن أكون بخير ؟

ـ ما حدث قبل قليل ..

* وما الذي حدث ؟

ـ هل فقدتِ ذاكرتك ؟

* لم أفقد ذاكرتي ولكنه أمر تافه لا يستحق .

ـ ميلينا لن أسامحك إن أخفيت حزنك عني، كفاك ضحكا ومزاحا ولا تكتمي أكثر، مستعدة لأسمعك ولأخفف عنك ولو القليل.

* تبا لك يبدو أنك ممن لا يطيقون رؤية ضحكتي يا لئيمة ..

ـ أنت تستفزينني، تريدين مني أن أصفعك ..

* فلتفعلي ذلك، أقسم أني سأنطلق في نوبة ضحك ولن تري دمعتي يا غبية، مع السلامة، لا تنسي غدا لدينا فرض .

ـ مع السلامة، راجعي جيدا ميلينا .

* سأفعل، باي ...

افترقنا في حينا، وواصلت كل واحدة منا طريقها لمنزل عائلتها، كنت أعلم أنها ليست بخير، كنت أعلم أنها تخفي في قلبها الكثير والكثير ولكن شيء ما يمنعها من البوح ...
بعد حوالي ساعة اتصلت بها ولكنها لم ترد على المكالمة، بيدوا أن هاتفها على الوضع الصامت كالعادة ..

ارتديتُ عباءتي وذهبت لبيتها، أخبرتني أمها أنها بغرفتها، طرقت باب غرفتها فلم يصلني رد، دخلت فوجدتها جالسة بشرفة غرفتها.. لقد سمعت صوت بكائها ..
لا يعقل، ما الذي تفعله بنفسها هذه المجنونة، في حياتي لم أرى دموعها، ولكن الآن ها هي تبكي أمامي ..
أيعقل أن تكون محطمة لهذه الدرجة ؟
أيعقل أن تكون أفعالهم قد دمرتها إلى هذا الحد..؟
حسنا من منا لم يتلقى إهانة أمام الناس ؟
من منا لم يتلقى كلاما قاسيا ؟
من منا لم يتلقى سخرية أو استهزاء من شخص ما مهما كان ؟
من منا لم ينتظر شيئا ما فكان الخذلان هو النتيجة الوحيدة ؟

أعلم أن الكل مرَّ بمثل هذه المواقف، وليس هناك شخص على هذا الكوكب لم يحدث معه شيء كهذا..

أعلم أنكم تتذكرون حتى ما مرَّ بكم بأيام طفولتكم من مواقف بائسة والتي رسخت في ذاكرتكم تأبى الإنصراف ...

لا تُنكروا أبدا، ليس منكم من هو قوي، فكلكم ضعفاء ، فمهما بلغتم من قوة أمام الناس إلا أنكم ضعفاء من الداخل، تحطمتم وتأذيتم وبكيتم، وإن لم يرى أحد ما أحزانكم ودموعكم فإن جدران وأسقف غرفكم شاهدة على كل شيء، وإن نطقت لانهارت من شدة أوجاعكم ...

موقف واحد فقط بإمكانه أن يظل راسخا بذاكرتكم لمدة تفوق أعماركم، ربما يكبر بداخلكم حقد تجاه من ظلمكم، حقد يتعسر عليكم قتله حتى لو أتى ظالمكم راكعا مذلولا يطلب العفو .. فهناك أفعال لا تُغتَفر.

فما الذي سأقوله عن ميلينا التي عاشت خلال السنتين الماضيتين سجينة وسط ذلك الكلام الجارح والصراخ الذي لم يتوقف، وإن حدث وعادت الأمور لمجاريها، سرعان ما ينفجر بركان جديد ليحرق كل ما زرَعَت في طريقها من أمل ..

و الشيء الذي يصعب علي فهمه، ما سبب كل هذا، ما الذي يدفعهم لإذائها ..

و كأنهم عقدوا معها اتفاقية أذية أبدية ..

كانت المسكينة تغضب لفترة قصيرة ، تُسمِعُهم من الإهانات ما يكفي لتريح قلبها ثم تنقلب نادمة، ليبقى سيل من الأحزان يتدفق بداخلها ...

ناديتها فاستدارت لي، بوجه شاحب عبوس وعيون ذابلة وخديها يحتجبان تحت وابل من الدموع ...

ليست صديقتي التي تركتها قبل قليل، ليست تلك الضاحكة المرحة التي لا تكف عن الضجيج والثرثرة، هذه مجرد تمثال واهن على وشك الإنهيار، بالله عليك لماذا كل هذا ..؟

ابتسمت معي، ثم مسحت دموعها وانفجرت ضاحكة، أعطتني الهاتف قائلة وهي تضحك :

*** انظري ..**

ـ ما هذا، يبدوا أنها رسالة جديدة .

*** وما الذي تنتظرينه مني في يوم كهذا ؟**

ـ ميلينا أخبرتك مرارا وتكرارا أن لا تبعثي بتلك الرسائل، ففي كل مرة تفعلينها إلا وكان الندم سيد الموقف ..

* لقد ندمت الآن، لا بل ربما لم أندم، لا انسي الأمر لا يهم ..

ـ تصرفي على طبيعتك وكفاك تمثيلا .

* ومن أخبرك أنني ممثلة .

ـ كنت تبكين ثم الآن تضحكين وتكذبين .

* تبا لك نادين، أخبرتك أنك لا تحتملين ضحكي .

لم أتمالك نفسي من الضحك ، كنت أعلم ما كانت تمر به من حسرة ورغم ذلك لم تترك لي الفرصة حتى لأواسيها، أتيت لأخفف عنها فجعلتني أضحك رغما عني ..

فجأة سألتني والإبتسامة تعلو وجهها :

* نادين، ما الذي تريدين شربه، شاي أم قهوة أم عصير أم ماء مع ملح ؟

ـ وهل الماء والملح يشرب ؟

*نعم فهو خاص بالأشخاص المزعجين مثلك، سأحضر الشاي وأعود .ـ لا لا داعي لذلك، لا تتعبي نفسك .

رمقتني بنظرة معاتبة للحظة ثم قالت :

* ومن أخبرك أني سأحضره لك ..؟

لم أتمالك نفسي فانفجَرْتُ ضاحكة عليها ...

عادت ميلينا بعد دقائق تحمل كوبي شاي لي ولها، ارتشفنا الشاي ونحن نتحدث ونضحك وكأن الحزن لم يعرف طريقه لقلبها ..

كنا سنراجع دروسنا فيما بعد، ولكننا قمنا بحساب عدد كل الروايات التي قرأناها ، واتفقنا على مجموعة جديدة منها سنطالعها فيما بعد، تصفحنا بعض كتب الطبخ والحلويات، طلبت منها أن تريني رسوماتها الجديدة، حاولتُ رسم بعض منها ولكني أخفقت كعادتي، فوعدتني بتعليمي يوما ما ..

لم نراجع حرفا واحدا من دروسنا، هكذا هو حالنا كلما التقينا .. غادرت بيتها متحسرة فأنا لم أقم بواجبي..

أعلم أنها كانت تبكي في صمت مدارية دموعها بتلك الضحكات الكاذبة، إنها فقط تزيح عن نفسها شعور الخذلان الذي يحاربها في كل مرة ، تزيحه ببعض الدعابات و الضحكات ، لا.. هي لا تزيحه، وإنما هي في محاولة يائسة لإخفائه بين ثنايا قلبها لينتزع عنه الستار فيما بعد، لتبقى أشباحه تطاردها من مكان لمكان، تحاول الهروب، ولكن إلى أين وهي كلها مقيدة بين ركام تلك الأحداث..

ذهبتُ من أجل أن أزيح عنها عبئا ولكن ما حدث أنها هي من جعلتني أضحك، ولكن ما عساي أفعل وهي ترفض الكلام ..

ميلينا لا أعلم إن كانت من النوع الذي يغفر الأخطاء بسهولة أم لا، هي لن تغفر أبدا ولن تنسى ما دامت لم ترى مبادرة اعتذار من غيرها، هي لا تنتظر أبدا كلمة اعتذار، وإنما بمجرد رؤيتها لهم يبتسمون معها أو تسمع منهم كلمة صباح الخير فإنها تنسى ظلمهم حتى وإن كانوا قد أعاشوها دهرا من العذاب ...

و أعلم علم اليقين أن هناك أشخاص لن تغفر لهم مهما حدث. لن تنسى أذاهم ولن تلتفت إليهم أبدا لأن وقت اعتذارهم قد فات أوانه، ولكن المشكلة تكمن فيما يحدث الآن ...

* * *

ميلينا :

غادَرَت نادين منزلنا بعدما رفعَت من معنوياتي، رغم أني لم أترك لها الفرصة لتخفف عني إلا أن الجلوس والمزاح معها كانا كفيلين لتغيير الجو الخانق من حولي ..

جلستُ بالقرب من النافذة، مع كوب شاي آخر.. هدوء..رياح.. ومطر.. شغَّلتُ المذياع على موسيقى بيانو هادئة، صوت ارتطام قطرات المطر بزجاج النافذة يزيد الموسيقى جمالا ...

أراقب شوارع ذلك الحي الصغير الذي لن أدوم فيه طويلا، دقائق فقط وسيكون الرحيل الأبدي ..

أراقبُ تلك الطرقات الخالية الغارقة تحت الأمطار، خالية من كل شيء ما عدا بعض آثار الأقدام العالقة هناك والتي أبت الإختفاء وكأن صاحبها كتب لها الخلود هناك مهما حدثت حولها من عواصف ...

عمود الإنارة يقف على الرصيف وحيدا، وبالقرب منه ظل غامض دون وجود صاحبه، فصاحبه غادر المكان وترك ظله عالقا هناك .

أحببت الحي بكل ما فيه، أحببت سكانه أحببت بيوته أحببت شوارعه وحتى سماءه، أحببت فجره وصباحه، ليله ومساءه، لم يكن مجرد حي، كان عالما آخر مرسوما بألوان الأحلام ، مرسوما بتفاصيل غامضة لن يفهمها أحد سواي ..

" عندما يحين وقت الرحيل، هل بإمكاني أن أحمل كل تلك التفاصيل لترحل معي، لأجعلها جزءا من مدينتي الجديدة، أم أنه لن يكون لها مكان إلا في حقائب الذكريات ... ؟ "

أفقت من شرودي على صوت أمي تناديني لتناول العشاء... بعد العشاء تجمعنا جميعا في الصالة كعادتنا، أنا، أمي، أبي، جدي، جدتي، أخي وزوجته وابنهما ...

رحلت بعيدا عن تلك الأفكار التي كانت ترهق نفسي واندمجت مع أحاديثهم الشيقة، وحكايات جدي وجدتي التي لا تنتهي، و لا أنسى رامي الصغير الذي لم يكن يكف عن الثرثرة بتلك الكلمات التي لم يكن يفهمها أحد ..

(4)

رجعتُ إلى غرفتي لتعود تلك الأفكار الأليمة تحوم حولي ثانية، فكرت، لم أكن الوحيدة التي أتألم، ربما ما يحدث معي مجرد أمور صغيرة جدا مقارنة بما يحدث للغير ...

غالبا ما كانت تشغلني معانات الغير، أعلم جيدا أن أغلب الوجوه العابرة من أمامي يوميا وكيفما كانت ملامحها فإنها تخفي حقائق لا يعلمها إلا صاحبها، فخلف الإبتسامات دموع، وخلف القوة ضعف ، وخلف القسوة إنسان طيب ..

لم أكن وحدي من أتألم، فكل شخص قد أهدته الحياة نصيبه من الألم بطرق تختلف من واحد لآخر، بطرق جعلت كل واحد يرى عظمة مشاكله فيما لا يلقي بالا لمشاكل غيره كونها في نظره أشياء لا تستحق، فقط لأنه لم يجرب حياة غيره ..

كيف يمكن حل كل هذه المشاكل ونحن نعيش وسط مجتمع مليء بالتعقيدات والتناقضات ..

أرى هذا المجتمع يتخبط في دوامات كثيرة، وبدل إيجاد مخرج فإنه يزيد من صنع الحواجز وغلق الأبواب ..

الحل هو أن يتم إصلاح المجتمع وترميم كل ما به من مساوئ .
المجتمع وتفكيره السلبي كان سببا لدمار أجيال وأجيال ..
الألم يدمر الإنسان، المعانات تجعل منه شخصا مزيفا غير الذي كان عليه .. والمجتمع في عوض أنه يصلح ما تهدم فهو يهدم ما تبقى ..
مجتمع ظالم، كل واحد يقدس نفسه ويرى أن الآخرين مجرد ظلال بلا قلوب وبلا أرواح، فيتخذ من حياة الغير رواية يرويها لكل من هب ودب، ويتخذ من معاناتهم وسيلة لإذلالهم والتشهير بهم بين الناس، فقط لأنهم بحاجة إلى الحديث والثرثرة بين الملأ، فلا يجدوا ما يملؤون به فراغ كلماتهم سوى حياة إنسان ما .
كثير ما كان يثير انتباهي هؤلاء الشباب، صغار ، لم يعرفوا معنى الحياة بعد، ولا أي طريق يجدر بهم اتباعها، فقد رسموا بأقلام الهلاك طريقهم دون أن يبادر أحد ليبين لهم زيف الألوان .. يكتفون فقط بالقيل والقال ..
شاب يترامى بين الشوارع بلا عمل، يتسكع هنا وهناك وغيمة من الدخان الكثيف ترافقه أينما حل، فالسجائر لا تفارقه أبدا، أحيانا يطلق ضحكات عالية.. أحيانا يركب في سيارته ويطلق

العنان لتلك الأغاني الصاخبة ليسمع بها مدينة بأكملها، كل من أخطأ في حقه ينفجر فيه بأقبح الكلام ...

السؤال المطروح، كيف ينظر المجتمع لهذا الإنسان ..

الجواب واضح وضوح الشمس، بكل بساطة سيقال عنه إنسان منحرف، إنسان بلا أخلاق، والكثير من الألفاظ التي تدل على سوء وبشاعة ذلك الإنسان، ستجد الكل يغتابه، الكل يمقته، الكل يبتعد عن طريقه، فقط لأنهم لم يحاولوا معرفة الأسباب التي دفعته ليصبح بهذا الشكل.

نعم، فمجتمعنا لا يجيد سوى الثرثرة الفارغة والتكلم عن الناس، فهل يا ترى هذا الإنسان خلق هكذا ؟؟

بالتأكيد لا، فكلنا نعيش بمحيط يختلف عن محيط غيرنا، لكل شخص في هذه الحياة ظروفه الخاصة التي تغيره وتخلق منه شخصا غريبا ...

لا، هم لن يحاولوا معرفة خبايا أنفسهم، هم فقط يذمونهم ويحتقرونهم، وهل هذا سيغيرهم مثلا ؟؟

لا لن يتغيروا، سيشعرون بالضعف والذل والإهانة، سيزيدون من تمردهم على هذا المجتمع، سينحرفون أكثر، ستكثر الجرائم والمشاكل والكثير من الأشياء، وستمتلئ السجون بالكثير منهم،

سيقال عنهم مجرمين، ولكن في الحقيقة أغلبهم ما هم إلا ضحايا لمشاكل أرهقت أرواحهم ودمرت آمالهم ...

مجتمع يبحث عن السلبيات الموجودة بين الناس من أجل الإشهار بها لا من أجل إيجاد الحلول ..

فلماذا كل هذا، لماذا لا يحاول كل شخص أن ينصح غيره، فإن ذهب شخص ما وجلس مع أحدهم وأعطاه الحرية ليحكي عما بداخله، لبكى من أجله، لندم على كل كلمة سوء تفوه بها عنه ، فقط لو سمعه وأنصت له لعرف الفجائع التي مر بها والتي جعلته يتخذ من ذلك العالم الأسود كمكان ليهرب إليه من بشاعة واقعه وحياته ..

إنسان كهذا ليس بوحش وليس بشيطان، وإنما هو مجرد إنسان محطم أخطأت قدماه في اختيار الطريق الصحيح، لم يجد من يرسخ في ذهنه أن الحياة ما هي إلا دار ابتلاء وأن الله يبتلينا ليختبرنا، والنتيجة ستكون يوم الحساب إما الجنة وإما النار ...

هو إنسان تألم فسار في الدرب الخطأ ، فبدل أن ينقذ نفسه تجده قد رمى بنفسه في طريق أشد ظلاما من مشاكله، طريق يبدوا له منيرا في البداية فيسلكه بخطى ثابتة، ولكن ما إن يصل لمنتصفه حتى تنطفئ الأنوار ليصبح الطريق مظلما معتما ولا سبيل للخروج

منه، والسبيل الوحيد هو شخص ما يبعث له نورا ليتبعه ويخرجه من تلك العتمة التي ضاع فيها ..

هو فقط يحتاج لمن يسمعه ولمن ينصحه، تخيل فقط أنك ستكون سببا لإنقاذ حياة إنسان من ذلك الظلام ..

لو كان المجتمع يتصرف بطريقة عقلانية وإيجابية لما حدث كل هذا الخلل بين الناس، ولكن للأسف كل واحد لا يعرف إلا نفسه، ولكنه يعرف غيره فقط من أجل الكلام الفارغ الذي لن يغير شيئا...

مثال آخر :

فتاة كانت غالبا ما تجلس وحيدة، لا أصدقاء لها، من يراها يُخيَّل له أنها منعزلة عن هذا العالم بأسره ..

صديقاتي كن يمقتنها ، يتحاشين الحديث إليها، قالوا متكبرة، قالوا معقدة، قالوا قاسية ..

و الغريب في الأمر أني سألتهن ما إن كن يعرفنها حتى يتفوهن بذلك الكلام عنها ، فكان جوابهن أنها تبدوا لهن كذلك من مظهرها وهيئتها، في بادئ الأمر لم أكن أعلم من هي الفتاة التي جعَلْنَها حكاية يملأن بها فراغ ثرثرتهن ...

قبل أن ألتقي بها صدفة، كنتُ أسألها عن الدروس، عن المراجعة، في بادئ الأمر كانت تكتفي بكلمة واحدة وتصمت، وبمرور الوقت أصبحَت ثرثارة لدرجة لا يتصورها العقل ..

قصَّت عليَّ قصتها .. وكيف أنها خُذِلت من أقرب الناس لها، حكت لي عن المشاكل التي ستدمر عائلتهم، كانت وحيدة فلا أخت لها تشتكي إليها وتفرغ حملا أرهقها ..

كل تلك الأمور جعَلَتْها تنعزل عن البشر، خذلانها جعلها تفقد الثقة في كل من حولها، وبنت لنفسها عالما مغلقا عاشت فيه لوحدها ...

كانت تلك هي نادين، صديقتي الوحيدة التي كان الكل ينظر إليها نظرة سلبية، فوجدت خلف قناعها إنسانا آخر لا علاقة له بتفكير عقولهم ..

كن يسألنني ما الذي دفعني لمخالطة إنسانة مثلها، تكلمن عنها ما جعلني أستشيط غضبا، فأجبتهم بهدوء، إنها أفضل منكم، ثم غادرت وتركتهن لثرثرتهن، مع مرور الوقت حاولت إدماجها معهن دون أن تعلم ما الذي قيل عنها، ونجحت أخيرا، فقد عرفنها على حقيقتها وجعلتهن يندمن على كل كلمة ماضية .

و في الأخير ،كانت هي الصديقة الوفية التي دام وجودها إلى جانبي، والتي لم يبدر منها أي فعل يؤذيني ..
فتبا لمجتمع تافه لا يهتم إلا بالمظاهر والكلام الفارغ ...
صليت ركعتين، ودعوت الله أن يذهب حزني وخلدت للنوم، لعلي أجد واقعا أجمل هناك ...

* * *

استيقظت صباحا وكلي طاقة إجابية وأمل ما يغمر كل جزء مني وكأن الحزن لم يعرف طريقه لقلبي أبدا، قررت اجتناب كل ما قد يؤدي بهم إلى جرحي وإيذائي وإحراجي، سأتجاهلهم، وأغير مساري كلما رأيتهم ما دام هذا يسعدهم، سأنسحب من عالمهم اللعين الذي لم أكن موجودة به أصلا، و لكن دون فائدة، فقد وصَلَت لحظة الإصطدام وحلَّ علي الدمار كالعادة ...
ـ اليوم عرفت شيئا، يا نادين، كل من ابتعدوا عنا وعملوا جاهدين على إبعادنا عن طريقهم ليس بالضرورة أن نكون نحن السبب خلف ذلك، ليس بالضرورة أن نكون نحن من أخطأنا، فنحن نلوم أنفسنا ونلتمس لهم الأعذار ونبرر لهم نية أفعالنا فيما تكون ردة فعلهم صادمة وكأننا ارتكبنا في حقهم جريمة لا تغتفر، فيما الحقيقة أنه مجرد خطأ بسيط ، و بِرَدَّات أفعالهم الصادمة

وتصرفاتهم المتمادية جعلوها تبدو في نظرنا جرائم كبيرة، إن الحقيقة وبكل بساطة أنهم كانوا يبحثون عن أتفه الأسباب للإبتعاد ...

* حسنا، ولو كنا حقا لم نخطئ في حقهم، ما السبب الذي يدفعهم للبحث عما يتخذونه سببا للإبتعاد ؟

ـ الأسباب واضحة، إما أنهم لم يجدونا أشخاصا مناسبين لتحقيق مصالحهم، أو أنهم عرفوا أننا أشخاص يصعب عليهم استغلالهم واللعب بعقولهم، وهذا الصنف من البشر هم أحقرهم، لأن المصلحة هي التي تسيرهم دون الإكتراث لمشاعر الغير ...

و من الجهة الأخرى هناك من يبتعد لأنه وبكل بساطة لم يرتح لنا، أو لم يُعجب بتصرفاتنا وبشخصياتنا، وهذا الصنف لا ألومه، فكل شخص في الحياة لديه أصناف من البشر يتأقلم معهم وأصناف أخرى لا، فشخصية الإنسان ومزاجه هما من يتحكمان في هذه الحالة...

و لأننا لم نظلمهم ،، فإنه من المخجل لهم الإبتعاد دون سبب واضح، فشرعوا في البحث عن أخطائنا الصغيرة ليحولوها إلى جريمة شنعاء تُحدث دمارا بداخلنا ونلوم أنفسنا ليلا ونهارا ، فيما

يُقيمون هم حفلة بمناسبة ابتعادنا ، نحن الذين كنا مجرد حاجز مزعج في طريقهم..

و لن ألومهم ما دامت حياتهم وهم من سيختارون من سيبقى فيها ومن سيرحل ... فقط تمسكوا بكرامتكم و لا تحاولوا أن تفرضوا وجودكم في حياة أحد ..

اسأل نفسك سؤالا ، هناك أشخاص لا ترتاح لهم .. شخصياتهم و عقلياتهم لا يناسبونك أبدا.. حتى لو كانوا لطفاء و طيبين و لكن تفكيرهم متناقض مع تفكيرك ، هل تتحمل وجودهم في حياتك ؟ أكيد ستجد أنك في يوم من الأيام أحرقتَ قلوب أشخاص و طردتَهم من حياتك بكل قسوة , أشخاص لا ذنب لهم ، فقط لأنك لم تستطع أن تتأقلم معهم ..

فقبل أن تلوم أشخاصا لماذا تعاملوا معك بطريقة ما ، تذكر أنت كيفَ تعامَلتَ مع بعض الأشخاص قبل ذلك ..

* * * * *

(5)

لقد تبعثَرْت، أصبح قلبي مجرد فوضى ورماد وحطام، لم أستطع ترتيب نفسي ولا إزالة ذلك الصخب القاتل الذي يملأ رأسي ...
كطائر مكسور الجناح يتخبط بين الأشواك عاجزا عن الطيران...
كفراشة أقبلت على الحياة فأُحرِقت أجنحتها لتسقط في البحر..
للوهلة الأولى ظنت أنه موطنها قبل أن تغرق ...
في لحظة يستوجب عليك الرحيل مرغما فلست أنت من أراد ذلك، حسنا فتلك هي الحقيقة التي يجب أن تتقبلها رغم أن عقلك يرفض، وهي أنه لا مكان لك في عالم يرفضك سكانه، لا مكان لك في أرض تحالف أهلها على هلاكك، فالعيش هناك إما أن يجرك للموت وإما أن تعيش منبوذا مدى الحياة ...
فقط احمل حقائبك وابتعد مادامت كل صافرات الإنذار تصدح ضدك ...

هل تسمعُ صوتا يحثك على البقاء ؟؟

تبا ..

فذلك ما هو إلا صوت قلبك اللعين ، فاقتله قبل أن يحفر لك قبرا ويدفنك أمام أعينهم لتصبح أنت الملقب بالمجنون الذي قاد نفسه للموت والهلاك ...

ها قد حجزتُ تذكرة للسفر من ذلك العالم ...

سأسافر بروحي، بقلبي، بتفكيري، فذاك هو ما يلزم..

لن أحدث ضجة بعالمهم بعد الآن، فليصرخوا عند رؤيتي، عادي فقد أصبحت صماء، فليغيروا طريقهم، فلا عيناي ستصابان بالعمى مجددا فقد أصبح الكل بالنسبة لي مجرد أطياف وخيالات..

لم يعد هناك ما يرعبني ويلقي بي في نفق الأحزان فقد تعودت على كل شيء ..

ليتني فقط أستطيع الكلام لأخبرهم إن رأوني فذلك ما هو إلا مجرد وهم خادع ، فأنا لم أعد موجودة إطلاقا ...

كل شيء كان واضحا منذ البداية، فقط أنا من تغابيت وجعلت نفسي تخوض حربا لا علاقة لها بمعالم وطني، كل شيء كان واضحا منذ البداية، فنحن خطان متوازيان لا يلتقيان أبدا، لا يلتقيان إلا عند انحراف مسار أحدنا فجأة لتحدث لحظة الإصطدام، ليواصل الجميع طريقهم بكل ثقة وبقلب بارد قاسي، فيما أبقى أنا مرمية على رصيف الألم أغرق في بركة من دموع قلبي ..

أجلس وحيدة شاردة أتذكر حلقات هذا السيناريو من أوله لآخره. مشاهده كلها مأساوية، أتأمل كل مشهد بصمت رهيب ...

حسنا ، فقد كنتُ أنا بطلة السيناريو، وكانوا هم القتلة المحترفين، فقد لعبوا أدوارهم بكل احتراف، أظن أن وقت نهاية دوري قد حان الآن، فقد مللت من لعب دور الضحية في كل مرة، أظن أن الحلقة الأخيرة قد أتت الآن ..

الرحيل ... نعم إنه الرحيل الأبدي والوداع الأخير، فقد حجزتُ تذكرة سفر بلا رجعة، أخبروهم فقط أنه لم يعد لدي وجود الآن...

دعوني فقط أخبرهم أمرا، عرفتُ أن بعض الأشخاص ورغم السم القاتل بكلامهم ورغم القسوة بعباراتهم التي تفننوا في اختيارها بإتقان من معاجم الموت والتي تكون كفيلة لإزهاق روح أمة بأكملها، إلا أنهم يحملون من الطيبة ما يكفي لإحياء روح ماتت قبل آلاف السنين بسم الأسى ...

عرفت ذلك في آخر يوم معركة مرت علي ....

أذكر أني تلقيت إهانة كبيرة دون علمي، وصلني الخبر مع إحدى صديقاتي، لم أصدق حينها ما الذي سمعته، لم أفهم حتى ما الذي فعلته أنا لأقع ضحية لذلك الكلام الجارح، ألم يكن بإمكانهم آنذاك قول كل ذلك لي أنا ؟

لم تؤلمني كلماتهم بقدر ما آلمني تصرفهم ذاك ..

كان مساءا أسود، لباس أسود، سيارة متوقفة على جانب الطريق، سوداء كسواد اليوم .. ثم كلمات قليلة كانت كفيلة لكل شيء، حاولت أن أدافع عن نفسي، حاولت أن أحرجهم أن أجرحهم أن أنتقم لنفسي مما حدث، حاولت أن أشرح لهم موقفي، أن أسألهم آلاف الأسئلة، ولكن صمتي كان فوق كل شيء، بقيت مصدومة مندهشة، لساني انعقد عن الكلام، لم أكن أعرف ما الذي يستوجب علي قوله، أذكر أني قلت بعض

الكلمات العشوائية التي لا معنى لها، أنا فقط لم أقل ما وددت قوله، ولم أكن أفهم أقوالهم ...

هل رأيتم يوما شمسا مشرقة مع أمطار رعدية وثلوج؟

أم أن النجوم تزين السماء في عز النهار؟

لم يحدث ذلك ولكن اليوم رأيت كل ذلك، رأيت حتى كومة من النيران تسبح وسط البحر دون أن تنطفئ، لا أدري لماذا، لأني بكل بساطة لم أفهم كيف لإنسان أن يتمكن من مزج تلك الكلمات القاسية والعبارات الجارحة التي تنذر بوقوع حرب، مع ذلك الهدوء وتلك الإبتسامة التي توحي بالسلام والأمن الأبدي .

لم أفهم إن كان يجدر بي تصديق كلماتهم القاسية أم تصرفاتهم الهادئة، أحسست أني سأصاب بانفصام حاد بعقلي، خاصة عندما سمعت كلمة اعتذار منهم، لقد اعتذروا ولم أفهم إن كان اعتذارا حقيقيا أم أنه مجرد وسيلة لغلق أبواب الكلام ..

كنت سأرد على اعتذارهم لولا تلك الدموع التي تجمعت بعيناي والتي دفعتني للهروب من ذلك المكان قبل أن تسقط ....

حسنا، هكذا كان ردي على اعتذارهم ..
كنت سأقول لهم :

" لا داعي للإعتذار فلا يوجد شيء لتعتذروا من أجله، فأنتم لم تؤذوني أبدا، كان مجرد سوء تفاهم بسيط تحول لحرب دون إرادتنا، فلا أنتم قصدتم إيذائي ولا أنا قصدت إزعاجكم .."

كان ذاك آخر شجار، آخر حرب، رغم ذلك كانت حربا مميزة جدا، حرب امتزجَت فيها الضحكات السعيدة بدموع الحزن، رغم أن كل الشجارات كان فيها شيء يجعلني أضحك دون توقف، ولكن اليوم أكثر، أذكر أني ضحكت كثيرا، كثيرا جدا، وربما كانت أول مرة أضحك فيها من قلبي...

رحلتُ عن ذلك المكان، ورحلُوا عن ذلك العالم، توقفَت تلك الحروب، وسلك كل شخص طريقه، وفقدتُ أنا ذاكرتي بعدها، لم أعد أتذكر شيء سوى تلك الأشياء المضحكة التي جعلتني يوما أضحك وأنا بين كومة من الأحزان ...

عجبا لأمر الدنيا، فالذكريات المضحكة هي التي ستَعمل جاهدة على إفراغ رئتاك من الأكسجين وتعويضهما بثنائي أكسيد الكربون القاتل، الذكريات الجميلة وحدها من ستعذبك لاحقا دون رحمة، فيما تبقى الذكريات الحزينة وحيدة في زاوية مجهولة لا نعلم أين يجدر بنا تصنيفها ...

* * * * *

" بروح منكسرة قد خرجت للتو من حربي ..

حرب لئيمة مزقت أطرافي، قطعت شرايين قلبي، حرب أزهقت روحي وشيعتها لمثواها الأخير ...

بروح منكسرة خرجت من تلك الحرب اللئيمة، مضرجة بالدماء.. بملابس رثة معبقة بكل روائح الذكريات التي كانت والتي لم تكن.. بل كانت مجرد تخيلات، معبقة بروائح أحداث مستقبلية لن يكون لها تاريخ ميلاد ...

أحمل بيدي فنجان قهوة من زمن راحل، أرتشفها رغم مرارتها وبرودتها ..

أخطو وسط الضباب الكثيف أبحث عن نفسي، فأنا لا أعرفني، بعض الوجوه العابرة تحدق بي، لا أعلم كيف أفسر نظراتهم الشاردة الغريبة ..

مشيت لأجد بركة من الماء، نظرت فيها إلى وجهي، استطعت أن أميز لونه فقد كان شاحبا ممزوجا بزرقة مخيفة ...

ماذا عن روحي ..؟

روحي قد ماتت في الحرب، هه لا تقلقوا، فمن انكساري سأخلق روحا جديدة ..

أخذت أجوب شوارع ألمي أبحث عن شيء ما، كنت حافية وأرض الشوارع قاسية محفوفة بالأشواك وقطع الزجاج المكسور المتناثر هنا وهناك، لا تشفقوا علي، فذاك لا يؤلمني أبدا، فقد اعتدت المشي هناك، لقد أصبح لعبتي وهوايتي المفضلة ... "

* * * *

* وأخيرا هدأت الأمور يا ميلينا، فليذهبوا إلى الجحيم، وإياك أن تسامحيهم، ادعي فقط أن تدور الأيام، ليهانوا كما أهانوك، ويجرحوا كما جرحوك، وأن يذرفوا دموعا مثل التي ذرفتها أنت بسببهم، قولي آمين يا ربي .

ـ يارب أسعدهم وأبعد البلاء عنهم ولا تجعلهم يتألمون واحفظهم من كل شر، آمين يا ربي، قولي آمين .

* لما هذه الدعوة يا ميلينا، لقد ظلموك ؟

ـ لم يظلموني أبدا يا نادين، أخبرتك ألف مرة أن هذا ليس ظلما أبدا ... فحتى أنا تصرفت معهم بنفس الطريقة القاسية ، بل أقسى بكثير .. هم لم يظلموني أبدا ..

* كيف هذا ..؟

ـ صدقيني، لقد كانوا أناسا بريئين وطيبين أكثر من اللازم، لقد كانت الطيبة تسكن أعماقهم ولكنها محجوزة بمكان ما لا يمكنها الظهور للعلن، هم فقط أشخاص تحملوا من الدنيا ما يكفي لتغييرهم، ليست تلك حقيقتهم، فالأشخاص الحقيقيون دائما يظهرون أمامنا بثوب تنكر حتى يخفوا عنا حقيقتهم البريئة، هم فقط أناس علمتهم الحياة أن الطيبة هي الطريق ذو النهاية المهلكة...

من يصرخ معك ليس بظالم، القسوة يا صديقتي ليست ظلما أبدا، الصراخ والإهانات والقسوة ليست سوى ردة فعل لتراكمات خلفتها المواقف والسنين داخل قلب كل إنسان، الصدمات.. الجراح.. خيبات الأمل.. أذى الناس.. كل تلك الأمور ستخلق من الإنسان إنسانا آخر مزيف لا علاقة له بالحقيقة، وغالبا ما تكون أكثر ميزة لهذا الإنسان هي القسوة، وكأنه يستخدمها كوسيلة للدفاع عن نفسه بمجرد إحساسه بالخوف فقط ودون حدوث أي شيء، لذلك كثيرا ما نصادف أشخاصا يقسون علينا دون أي سبب واضح، ولكن لو تغللنا بأعماقهم لوجدنا آلاف الأسباب التي تدمي القلب.

و لكن مشكلتهم أنهم ينتقمون لأنفسهم بأشخاص آخرين ليس لهم أي ذنب، بل هم مجرد ضحايا لأفعال غيرهم، والسبب يعود إلى أن الشخص الذي تأذى من غيره سترسخ بمخيلته أن كل الناس حوله يشبهون الذي أذاه، مما يدفعه لمعاملة بعض المحيطين به بقسوة كانتقام مما فات.

الحياة كفيلة بأن تغيرك، فبعض الظروف ستخلق منك شخصا غير الذي كنت عليه، فأحيانا يصعب عليك التعرف حتى على نفسك، من تكون، وما الذي تريده، وما هدف تواجدك على هذه الأرض...

فخلف كل إنسان قاسي، عالم من الطيبة لن يدركه إلا من حاول قراءة ما تخفيه حقيقته، نحن فقط من نقسو حين نطلق الأحكام على غيرنا دون محاولة منا لمعرفة خبايا أنفسهم ...

و في نقطة أخرى، يحدث أن نسامح أشخاصا أساؤوا إلينا، ننسى إيذاءهم لنا، نصادفهم فنبتسم لهم، ولكن في لحظة ما ننفرد بنفوسنا لنستحضر كل تلك الذكريات والأحداث التي جرفها طوفان الزمان لتنقلب الأمور بخيالنا فجأة، لنشعر بثورة عارمة تجتاح نفوسنا، كبركان خامد انفجر فجأة، لنصادف ذلك الشخص في اليوم الموالي فنرسم علامات الغضب على وجوهنا،

نغير طريقنا إذا ما رأيناه، نتهجم عليه عند أول فرصة، فنظن أنه قد فهم سبب غضبنا، ولكن الحقيقة أنه لم يفهم لأننا قد بينا له سابقا أننا قد نسينا كل شيئ، فنحن من نغوص في أعماق مظلمة لا يجدر بنا الغوص بها...

لذلك ليس غريبا أبدا أن تصادف شخصا فيتهجم عليك ويصرخ بك من دون أي سبب، بل هناك سبب وهو شيئ ما قد فر من بين طيات الماضي ليسكن ذاكرته مرة ثانية ...

و العكس تماما مع بعض الأشخاص، قد يبدون لك محبة ولطفا واهتماما، ولكن ذلك ما هو إلا مجرد زيف يخفون به حقيقتهم الشيطانية من أجل استغلالك لا أكثر...

الظلم يا صديقتي ليس هكذا أبدا، الظالم هو من يعمل جاهدا لتدمير حياتك، من يفعل المستحيل من أجل إزهاق روح سعادتك، الظالم من يتكلم في ظهرك كذبا والظالم الآخر من يستمع لأكاذيبهم ويصدقهم دون الحاجة لمعرفة الحقيقة منك ...

الظالم من يغتابك، من يفسد علاقاتك مع غيرك، من يشوه سمعتك بين الناس، من يجعلك أضحوكة بين الناس ، من يتكلم عنك دون معرفة حقيقة نواياك ..

هذا النوع من البشر صادفتهم كثيرا في حياتي، استوطنوا عالمي منذ طفولتي .

صدقيني لحد الآن لا يزال حقدي عليهم متوغلا بأعماقي، لن أنسى أبدا من تكلم في ظهري يوما واغتابني وقال ما ليس في، لن أنسى أوقح من قابلتهم في حياتي ، سواء في أيام الإبتدائي أم المتوسطة أم الثانوية و حتى في أيام الجامعة ، لا أزال أذكر تفاصيل وجوههم اللئيمة، أذكر أصواتهم المقرفة، أذكر عيونهم الحاقدة..

فأسوأ الأشخاص في حياتي و أحقرهم و أوقحهم ، كبروا بعدها و كبِرتْ معهم تفاهاتهم و وقاحتهم و عقلياتهم المتخلفة ، أذوني كثيرا ، ولسبب ما كانت غايتهم تدميري ، و لم أكن الوحيدة ، بل أذوا أشخاصا آخرين ، و حتى إن تغيروا مع مرور الزمن ، فستبقى آثار تصرفاتهم متوغلة في نفوس كل من تعرضوا لهم ، لقد كانوا فيروسات تلحق الأذى بأي شخص ، فقط ليظهروا أنفسهم أمام الملأ ..

و استمروا في ذلك والسبب، أني كنت هادئة صامتة، أصمت لكل الأذى، لم أكن تلك الفتاة التي تنفجر غاضبة في وجه كل لئيم، بل كان التجاهل هو رفيقي ، كنتُ أعتبرهم مثل المهرجين

البائسين الذين يفشلون في التأثير على غيرهم ، و لكن الأغبياء استغلوا الفرص ليبينوا قواهم أمام الملأ وما علموا أنهم مجرد جرذان ضعيفة كان بإمكاني أن أدوس عليهم تحت قدمي...

كصديقة مزيفة تدعي محبتي وما هي إلا شيطانة تستغل أبسط الفرص لتحطيمي وتدمير معنوياتي وكأن سعادتي عبئ عليها، وكأن سعادتي ستوقف حياتها، فلا تبتسم إلا حين ترى دموعي، يضيق نفسها يشحب وجهها، تصاب بكل أمراض الدنيا حين ترى سعادتي، ولا تشفى حتى تدفعني بكلامها إلى هاوية الكآبة....

كهؤلاء الذين أعطيتهم قيمة يوما ليستغلوا الموقف، ويتكبروا ويطلقوا العنان لألسنتهم الحاقدة، ويجعلوا من أنفسهم أشياء عظيمة ، يدوسون على كرامتي وما علموا أنهم كانوا مجرد قمامة أخطأتُ يوما في وضعها بالمكان الصحيح، لأن ثوبهم كان زائفا، فقليل من الإهتمام يفضح لك النفايات المتخفية خلف ردائهم النظيف البريء ..

كهؤلاء الأشخاص الذين لم أرهم منذ زمن طويل ولكن أشباح لؤمهم وظلمهم لا تزال تحوم حولي لتزرع بداخلي حقدا أكبر عليهم..

لستُ قاسية القلب ، وإنما هم من دفعوني لارتداء ثوب القسوة الذي حاربت به فيما بعد كل المحيطين بي ...
فرغم أني كنتُ من الظاهر متجاهلة لتصرفاتهم صامدة كجبل لا تحركه رياح .. إلا أني كنت ضعيفة جدا، أعترف بذلك، ضعيفة ليس لأني صمَت ولم أثأر لنفسي، بل ضعيفة لأني بنيت من أقوالهم الفارغة وأفعالهم التافهة سجنا أسود لي وأمضيت فيه وقتي بين صداع ودمار ، فيما كان لا يجب علي تضييع دقيقة من وقتي بسببهم ..

أصبحتُ الآن أكثر قوة، فلم تعد تعنيني تفاهاتهم، كلام الناس بالنسبة لي مكانه الأوحد في سلة النفايات، وأفعالهم مهما كانت قاسية وظالمة فهي لا تتعدى أحداث مسلسل كرتون هزلي ..

" الضعف ليس عدم قدرتك على الرد، وإنما الضعف هو التأثر بتفاهاتهم .. والقوة لا تكمن في طريقة ردك .. وإنما القوة أن ترمي أقوالهم وأفعالهم عرض الحائط وتمضي في طريقك وكأن لا شيء قد حدث ... "

حاوَلوا إيذائي، وهم يحاولون الآن وسيحاولون في المستقبل، أنا أعلم، فالحياة لا تخلوا من تلك الفيروسات البشرية ..

أخبِروني فقط، لما تتعبون أنفسكم يا جهلة، أمازلتم تظنون أن بأفعالكم ستجعلونني أركض باكية لأجد لي مكانا لي تحت الطاولة لأتوارى خوفا منكم ...

أنتم مجرد مرضى، أنتم تتوهمون، فلتزوروا طبيبا عقليا ليعالج خلايا عقولكم التالفة ولتحصلوا على عطلة مرضية تهدأ فيها أنفسكم ..

أنتم مجرد مرضى إن كان ظنكم هو استسلامي لكلامكم وأن أقع طريحة فراش اليأس بعدما ترسخون في ذاكرتي أني مجرد شخص تافه بلا مستقبل وبلا قيمة بكلامكم التافه يا تافهين، أتعلمون.. أصبحت أحب الإنصات لأقاويلكم المستفزة وأكاذيبكم عني وخرافاتكم التي لا تأتي إلا من خزينة النفايات بعقولكم ...

يا من أحببتم حزني وسعدتم لأجل كل دمعة سقطت من عيني قهرا، وتألمتم لأجل كل بسمة عابرة أشرقت وجهي، وسعيتم بشتى الطرق لمحوها، ها أنتم الآن تقفون أمام شخص وإن ذبحتموه وعذبتموه لا لن يبكي، سترون ابتسامته تشع عليكم من كل مكان لتعمي أبصاركم ..

هل تعلمون، سعادتكم من أجل حزني قد ذهبت هباء مع الرياح، فيما حزني لم يخلف خلفه سوى إنسان قوي، أو بالأحرى ، حزني هو الذي جعلني أكتشف ذاتي الحقيقية التي كانت في سبات وكان الحزن هو موقظها من تلك الغيبوبة الطويلة ...

" تحت زخات المطر جلست أراقب منظر الغروب الجميل ...
تحت تلك السماء المظلمة المتدثرة تحت لحاف أسود من غيوم محملة بالثلوج جلست أراقب منظر القمر والنجوم ..
لا تتعجبوا .. فمن العدم قد خلقت أشياء جميلة ..
و من الألم شيدت آمالا لا متناهية ..
فلا تخافوا، زيدوا من إيذائي فذاك يزيدني قوة ..
اظلموني ، فالأمر بات عاديا جدا، فمن ظلمكم شيدت عالما سيموت فيه كل من دخله، ولكن هناك أحيا أنا بقلب خال من الشوائب السوداء ..
حاوِلوا فقط إبكائي، فستسمعون صوت ضحكاتي التي ستدمر قصور أوهامكم اللعينة ..
شغِّلوا الموسيقى الحزينة التي كانت تبكيني يوما، فقد تعلمت

الرقص باحتراف على أنغامها وأنا مبتسمة بكل ثقة ..

أجلس بالقرب من بيانو قديم، مفاتيحه عبارة عن قطع زجاج حاد وسكاكين، أعزف بكل براعة، وكلما زاد الألم بأطراف أصابعي كلما أصبحت الموسيقى أكثر جمالا ..

فالألم هو من يولد الثقة والإحتراف ...

فقد عزفتُ على أوتار الألم ألحانا جميلة خالية من نوتات الأحزان...

اقرعوا طبول جنازتي، أعلنوا عن نهايتي ..

لقد مزجتُ أصوات الطبول بمعزوفاتي وغنيت بصوتي الحزين أغاني راقصة ..

لقد حولتُ نهايتي إلى نهاية أشياء تافهة كانت بعالمي، وجعلت

لحياتي بداية جديدة ...

لا تقولوا أن الألم قاتل بإمكانه إزهاق روحي، لا أبدا، فالتي ماتت هي تلك الروح الهشة التي لا تستحق العيش ..

فروحي الجديدة هاهي تصرخ وتنادي، لا تصرخ طلبا للشفقة ولا طلبا للعون ..

بل تصرخ مرحبا بالفجائع، أهلا بالآلام والإنكسارات، فإني سأمزج ألوانها السوداء والرمادية، لا لن أرسم منظرا كئيبا أبدا، فبالسواد سأرسم السماء وبالرمادي سأزينها بالنجوم، وهناك شهاب الإنتصار يشع معلنا بداية لحياة كانت خامدة تقطن بداخلي والألم هو من أحياها ..

الألم أحيانا هو نهاية الإنكسار ، الألم هو موت للروح الضعيفة وبداية حياة لروح جديدة أكثر قوة وتماسكا ...

لولا الألم لما تغيرنا للأفضل، لولا الألم لما اكتشفنا حقيقتنا ...

***

(6)

الرحيل ..

فطالما كانت كلمة مخيفة تحمل بين حروفها أشد أنواع الألم، إلا أني مررت عليها بسلام قاتل، مررت عليها وكانت مجرد شفرة حادة مزقت قدمي..

رحلتُ من عالمهم، رحلتُ بتفكيري وخيالاتي ولم يتبقى سوى المكان ..

" فطالما كنتُ عبئا عليكم .. ربما استعمرتُ مدينتكم ..ربما جعلتُها تغرق في الظلام ،أم أني أتيت فقط لأني .... تبعتكم ... ربما هذا هو ظنكم .. "

أفرغنا الملابس وفككنا الخزانات، جمعنا كل الأواني، أفرغنا كل شيء وجعلناه يتوسط البيت ..

غرفتي .. انتزعت كل الرسومات المعلقة بها، أفرغت الرفوف من تلك الكتب المكدسة عليها ..

نزعتُ ستارة النافذة الوردية، التي كنت أختبئ خلفها ..

أصبحَت غرفتي كئيبة، كانت جدرانها ملونة بأجمل الذكريات التي رسمتها، فحتى الذكريات الحزينة .. باتت في نظري جميلة في هذه اللحظة.

حزنت لدرجة خيل لي أن الجدران تبكي، وكل الأشياء المكدسة هناك تبكي رافضة هذه المغادرة المفاجئة ..

كنت أود لو بإمكاني جعل هذا اليوم يمتد لأيام أخرى، يمتد لأشهر وسنوات، بل إلى دهر بأكمله ..

وددت لو عدت بخطوات نحو الوراء لأجعلهم يعدلون عن قرار هذا الرحيل اللعين الذي اتخذوه فجأة، وكأن كل الأشياء التي أحببتها اتفقت ضدي وقررت التخلي عني في لحظة واحدة ودون سابق إنذار ..

" لو بإمكاني أخذ عائلتي والرحيل عن هذا المكان لفعلت، ولكن للأسف ... "

أخَذَت هذه الجملة تتردد في مسامعي، نعم قلتها ولكن لم أعلم أن ذلك سيجعلها حقيقة يوما ما، أتساءل إن كان الكلام عن أشياء سيئة والتفاؤل بها هو بمثابة استحضار لها أم ماذا ..

لا لم أكن أنا صاحبة القرار، كان يصعب علي حتى مجرد التفكير في هذا، ولكن القدر والصدفة لعبا دورهما بكل احتراف، فقد

اشتركَ أبي وأخي واشتريا بيتا جديدا بمدينة أخرى، مدينة لم أحتملها حتى قبل رؤيتي لها، لم أشأ أن أفسد فرحة العائلة بإخبارهم بمدى استيائي، رأيت السعادة تغمرهم فابتسمت طالبة من الله أن يديم سعادتهم ..

إنها اللحظات الأخيرة لي بهذا المكان الذي رسمت فيه أحلاما وهمية لن تتحقق ..
آخر ليلة أراقب فيها صفاء سماء الصيف وأمطار الشتاء، منظر الغروب ومنظر بزوغ شمس الصباح ..
في هذه اللحظات تعاقبت علي كل فصول السنة بصباحاتها وأمسياتها ولياليها ... وأحلامها الدفينة ..

اليوم لم يكن يوما عاديا، فقد كان قلبي ينزف، كنتُ أبكي وكانت السماء تبكي معي، وكأنها تواسيني، أراقب تساقط قطرات المطر على زجاج النافذة في صمت رهيب وصراخ صامت يمزق نفسي، أراقب الشوارع الخالية وهي تسبح تحت وابل من الأمطار، ورغم هطول المطر ، إلا أن تلك الآثار لا تزال عالقة هناك ...

حزمنا أمتعتنا وركبنا سيارتنا وانطلقنا نحو عالم جديد، نحو كوكب جديد لا رغبة لي في التواجد بين معالمه، كانت الشوارع تقطر وجعا، والسماء تنتحب، والصخور تتألم، أما أنا فكنت منطفئة تماما، منطفئة كشمعة تآكل فتيلها ولا سبيل لاشتعالها ثانية ..

لم يكن رحيلا عاديا، فقد رحلت كل الأشياء من حولي، رحل كل شيء إلى اللاوجود، رحلت كل الأشياء الجميلة إلى العدم، وبقيت أنا في متاهة معتمة لا أجد طريق العودة ...

رحلت أنا، ولكن تركت قلبي ملقى على ذلك الرصيف تحت عمود الإنارة، وتركت نفسي تائهة بين شوارع لم تعد تنتمي إليها...

كانت مدينة لا تشبه مدينتنا القديمة في شيء، طرقاتها بدت في نظري بشعة لدرجة لا تحتمل، لدرجة جعلتني أعجز عن السير فيها خطوة واحدة، شوارعها بدت لي خالية وكأنها مدينة مهجورة اعتزلها البشر منذ الأزل، وحتى سماءها بدت لي موحشة، الزمن، التوقيت تغير، فقد أصبحت أنام بتوقيت الاشتياق وأستيقظ صباحا بتوقيت الحنين ..

لم أكن أعلم أن الاشتياق لا يقتصر فقط على الأشخاص، لم أكن أعلم أني سأشتاق يوما لمكان ما، فطالما كنت أسخر ممن يفعلون

ذلك، ومن يبكون على الأطلال، على فراق منازلهم وقراهم وأحيائهم ومدنهم ، وها أنا الآن قد رميت في نفس الدوامة ووضعني القدر في نفس الموقف لأدرك حقيقة ما كنت أكذبه يوما...

هذا العالم والعالم الأول لا يتشابهان في شيء سوى عدد الأيام والأشهر، لا بل ربما لا يتشابهان حتى في هذا، عالمي الأول كانت أيامه رائعة، كانت روعتها تجعلها تمر سريعا ولا تترك بقلبي سوى تحمس ليوم جديد..

أما عالمي الحالي فكانت أيامه مملة بدرجة لا تطاق، مملة وبطيئة كأنها في سباق عكسي مع الزمن، الفوز سيكون من نصيب أكثرهم بطئا، مللله يجعل اليوم بحجم أسبوع وأكثر، ولا يترك بقلبي سوى أمنية أن أنام ويطول الليل كالنهار لأغرق في أحلام وكوابيس، ولكن الليل لم يكن يتجاوز خمس دقائق لا أكثر...

تمر الأيام، يوما بعد يوم، وكل يوم يعيد نفسه، بنفس الروتين الممل، لم أعد أنتظر شيئا ليحدث، أنتظر فقط انقضاء اليوم لأنام، لعل شيئا ما سيتغير في المنام ...

لم أكن لأتحمل كل هذا الملل، في بيتنا القديم كان جلوسي بمكتبي قرب النافذة أو بشرفتي كفيلا لأراقب العالم بأسره، أما الآن، أنظر من النافذة فلا يقابلني سوى ذلك الفراغ الممتد بلا نهاية ...

عجبا لذلك الصمت الرهيب الذي حل على عالمي فجأة، لم أعد أعرف نفسي، لم أعد أعرف إن كنتُ أنا هي ميلينا أم أن ميلينا الحقيقية قد ماتت ليحل مكانها صنم دون نطق ولا حراك.

و لأكسر هذا الملل وأغير الروتين وأخرج من هذه الدوامة المعتمة، كنتُ أودع عائلتي وأخرج كل صباح، أذهب مباشرة إلى نادين، آخذها وننطلق في نزهات، لم تكن نزهات طويلة، ولكنها كانت كفيلة لتذهب عني ذلك الغم ...

كل يوم نخرج حتى زرنا شوارع المدينة بأكملها، ثم انطلقنا بالقطار نحو العاصمة، زرنا متاحف الرسم كلها، وكل رسمة أمر عليها تترك بصمتها في قلبي، تدفعني لحب الرسم وتشجعني عليه أكثر وأكثر بعدما مات شغفي تجاه الرسم ...

زرنا متاجر الآلات الموسيقية والتي طالما كان حلمي الكبير في اقتناء واحدة منها، بيانو، قيثارة أو كمان، ولكني أرحل عنها في كل مرة تاركة بصري معلقا عليها حتى تخفيها مسافة الطريق عن نظري...

زرنا مكتبات أدوات الرسم التي سألت فيها عن أسعار كل صغيرة وكبيرة، ولغلاء أسعارها لم أقتني منها شيئا سوى بعض الأقلام، والأوراق البسيطة التي دسستها لحين عودتي للرسم مرة ثانية ...

زرنا مكتبات الروايات التي مررت فيها على كل رواياتها واحدة واحدة ولم أقتني منها سوى روايتين صغيرتين، ولأجلها أصبحت أدخر المال ، كلما جمعت ثمن رواية إلا وأسرعت لشرائها مهما كان ثمنها، فمنظر الروايات والكتب وهي مكدسة على رفوف غرفتي يجعلني أبتسم رغما عني ...

زرت كل تلك المتاجر لأمتع نظري لا أكثر، فرؤية أشياء كتلك ولسبب ما كانت ترفع من معنوياتي...

قد يستغرب البعض مِن هذا ، فكيف يمكن لريشة رسم أو قلم بسيط أو كتاب أن يسعدني، ولكن لن يشعر بذلك إلا من كان عاشقا للرسم وآلات الموسيقى والكتب ، سيرى أن تلك الأشياء ما هي إلا عالم كبير من السعادة التي لا تلوثها شوائب الأحزان .. هكذا كنت أمضي كل أوقاتي، فمن حزني تمكنت من رسم عالم جديد من السعادة التي لا يعرف سرها إلا أنا ونادين التي كانت تشاركني كل كبيرة وصغيرة ...

بمرور الأيام كان عقلي يتفتح أكثر وأكثر على الأشياء والناس من حولي، أصبحت حذرة جدا في انتقاء الأشخاص من حولي، أصبحت أثرثر مع عائلتي، مع نادين وبعض الصديقات، وأعتزل الكلام مع البعض الآخر لدرجة أنهم ضنوا أني بكماء ..

لقد تغيرتُ كثيرا، أصبحتُ قليلة الكلام، انعزلت عن أصناف كثيرة من البشر، أصبحت أكره تلك التجمعات السخيفة التي لا تأتي بفائدة ...

بعضهم يراني متكبرة، والبعض الآخر يرى أني منطوية بسبب عزلتي، ولكن الحقيقة أن المشكل بعقولهم وليس بي أنا.

كثيرا ما كنتُ أجلس بينهم فلا أسمع سوى ثرثرات فارغة، أجلس بينهم لكن أصبحت أستمع فقط، أستمع أكثر مما أتكلم، يظنون أني لا أجيد الكلام، أما أنا فأثناء صمتي كنت أحلل شخصياتهم وخبايا أنفسهم، وكيف أنهم يبتسمون في وجه إنسان ثم يجلسون بين الملأ يذمونه، كنت في كل مرة أجلس صامتة بينهم أتوصل إلى حقيقة أنفسهم، وأتساءل ما الجدوى من هذه الثرثرات التي لا تأتي بفائدة، فلا هي تفرح النفس، ولا هي تكسب حسنة، ما هي إلا مجرد مضيعة للوقت واكتساب لسيئات لا أكثر ...

أصبَحَت عزلتي هي عالمي، هناك أعيد ترتيب الأفكار المبعثرة بعقلي، هناك أفكر في كل ما حدث معي لأجد أنها كانت مجرد تفاهات أعطيتها قيمة أكثر مما ينبغي ...

غرفتي أصبحت ملجئي من بشاعة العالم وظلامه وضجيجه، أكثر ما يستفزني هو سؤالهم المزعج، لماذا أمضي أغلب أوقاتي بغرفتي، وغالبا ما أتجنب الخوض في أحاديثهم ..

بكل بساطة لأن غرفتي عالم آخر، لدي من الكتب ما يكفي لأتفتح على العالم، لأكتسب معلومات وأعرف حقائق أنتم تجهلونها.

في الوقت الذي كنتم لأنتم تضيعونه في الثرثرة كنت أنا منشغلة إما بالقراءة أو الكتابة أو البحث في مختلف المجالات، اكتسبت ما يكفي من الخبرة لأسير في دربي دون الإصطدام بالعثرات .

تغيرت نظرتي للحياة، وللكثير من الأشياء، تغير تفكيري، أصبحت أكثر حكمة من ذي قبل، أما أنتم فأخبروني ما الذي جنيتموه من ثرثرتكم ...

العزلة يا أصدقائي ليست الإبتعاد عن الناس، وإنما هي تواجدك بين بشر لا ترتاح لهم نفسيتك ..

اعتزال بعض أصناف البشر ليس مؤذيا أبدا، بالعكس، ذلك ما يخلق بك روحا جديدة بطاقة أكثر إيجابية ..

أن يكون الإنسان سجين غرفته ليست عزلة أبدا، أنت تراه وحيدا، ولكن الكتب والأقلام والأوراق أكثر من أصدقاء، فهم الأصدقاء الصامتون الذين يسمعونك دون أذان، ويرفعون من معنوياتك دون كلام ...

العزلة لا تعني دائما الإنطواء، فكل إنسان بحاجة للجلوس مع نفسه بعيدا عن ضجيج وكلام الناس الذي لن يزيده سوى طاقة سلبية وتدميرا للمعنويات ، و لن يربح منهم إلا الغيبة و النميمة ..

قدس وحدتك، فوحدتك دليل على شجاعتك وعدم خوفك وقوتك وقدرتك على أن تبني عالمك لوحدك دون الحاجة لظلالهم السخيفة ....

كثيرا ما كان يقال عني مجنونة ثرثارة مرحة ومضحكة، وكثيرا ما كان يقال عني صامتة منعزلة ...

فبحياتي قسمت الناس من حولي إلى صنفين، صنف أرتاح لهم و أتحول بوجودهم إلى ثرثارة لا تجيد الصمت، تتكلم دون توقف،

والصنف الثاني أصاب بشلل تام عن الكلام بمجرد رؤيتهم، لا تروقني أحاديثهم، ولا طريقة كلامهم، ولا تصرفاتهم ..

لا تروقني مصاحبة المتكبرين، والذين يستصغرونك، والذين يتدخلون في شؤونك و خصوصيات حياتك ،و الذين يسألونك لماذا أنت صامت، لماذا أنت شارد، أنت لا تجيد الكلام، انظر لذاك ولتلك كيف يتكلمون لماذا لا تتكلم مثلهم.... تبا، وتبا وتبا، وألف تبا لكل من يحاربنا بأسئلة مزعجة كهذه، أنتم إذا كنتم ترون أني منطوية لا أجيد الكلام، أو منعزلة عن البشر، ذلك فقط لأنكم وبكل بساطة لا تروقون لي، لا أرتاح للحديث إليكم فكفاكم تدخلا فيما لا يعنيكم ...

احترِموا حياة البشر، احترموا عزلتهم وتصرفاتهم وقلة كلامهم، فنحن لسنا إنسانا واحدا لنعيش نفس الظروف، ولسنا بشخصية واحدة لنحتمل كل أنواع البشر، نحن مختلفون يا عالم، فأنتم لم تعيشوا ما عاشه غيركم، وغيركم لم يعش ما عشتم أنتم، أو بكل اختصار، لا تتدخلوا في حياة غيركم فهي خط أحمر لا يعنيكم، اهتموا بحياتكم واتركوا للناس حياتهم يا متطفلين ...

سيحاولون تغيير طباعك، وتفكيرك، وتصرفاتك، سيحاولون رسم أفكارهم في عقلك ويطمسون من شخصيتك، فقط حتى يتأقلموا معك، وأنت بكل سذاجة تتغير لكل ظل عابر يمر عليك، لن تبقى أنت أبدا، ستكون آلاف الأشخاص في شخص واحد، ستموت أنت ويولد مكانك مسخ بلا هوية ...

ثم ماذا بعد، تنظر حولك، أين الجميع، لقد رحلوا بعدما شوهوك وجعلوك لا تتعرف حتى إلى نفسك، لا تلمهم، بل لم نفسك فأنت من كنت ساذجا لا تفعل إلا ما يرضي غيرك ...

"عش حياتك وكن كما أنت، ولا تغير ما فيك من أجل أن توافق من حولك ، فمن يريد البقاء معك سيتقبلك بكل ما فيك ، سيتقبل أفكارك مهما كانت، لا أن يغيرك ليجعلك تعيش بشخصية مزيفة و تصرفات مصطنعة ..."

(7)

تتساءلون ما إن كانت لدي صديقات، أم إني كنت مكتفية بنادين فحسب، حسنا، سأخبركم ...

كنتُ أرى صديقاتي أنهم أخوات لي ، بمجرد رؤية ابتساماتهن تنطفئ أحزاني، لم تكن لي صديقتان ولا ثلاثة، كانت لدي الكثيرات والكثيرات ، كنت أراهن كشخص واحد فلا فرق بينهن ..

كثيرا ما كانت تخبرني أمي أنهن لسن بالصديقات، وأنهن مجرد رفيقات فحسب، وتبًّا لي كم كنت حمقاء حين كنت أشرح لها وأبرر لها أنهن نِعم الصديقات ...

ـ لا يا أمي، أنت لا تعرفينهن، فلم أرى في حياتي مثلهن صدقيني.

* حسنا، أخبريني عن أمثلة تبين حقيقة صداقتهن ..

ـ هن لا يفارقنني أبدا، يمضين جل أوقاتهن معي، يساعدنني في قضاء أشغالي، هن من أتصرف معهن بعفويتي، معهن أكون مثل المجنونة أضحك أمزح دون الاكتراث لشيء ..

تبتسم أمي قائلة :

* أخبرتك يا ابنتي أنهن مجرد رفيقات، فهناك فرق بين الصديق والرفيق، وستكتشفين ذلك بمرور الوقت ..

أذكر ذلك اليوم حين قرر جميعنا الإجتماع في حديقة الجامعة، لم أكن قادرة على الكلام، لم أكن قادرة على سماع أي حديث، كنت أحتاج فقط لعزلة مع نفسي أعيد فيها ترتيب نفسي وأفكاري ...

ابتعدت عنهن وجلست لوحدي، ولكن فجأة أتين جميعهن وجلسن حولي، يسألنني لماذا أنا وحيدة ...

ابتسمتُ لهن فقد شعرت كأنهن أخواتي ...

كُن يتحدثن ويمزحن فيما كنتُ أنا أبتسم أحيانا، وأنطق بكلمة أحيانا، لاحظن صمتي وتغيري المفاجئ، أخذن يسألنني بلا توقف نحن صديقاتك هيا أفرغي لنا قلبك ولا داعي للكتم أكثر، كنتُ في كل مرة أخبرهن أنه لا شيء، مجرد صداع فحسب، ولكن ألححن في سؤالهن ...

في لحظة أحسست أني محظوظة بهن، ولكن بعدها أدركت أني وحدي رغم آلاف الصديقات حولي، أدركت أني أسير في درب طويل بلا مرافق .

فبرغم كل ما كنتُ أعانيه، رغم كل تلك الحروب التي تأبى أن تخمد، رغم كل تلك الخناجر التي تطعنني، رغم كل تلك الصراعات التي كنت أخوضها لوحدي، إلا أني كنت الشخص الوحيد الذي يقف إلى جانبهم، أرفع من معنوياتهم، أحول كآبتهم إلى مزاح وضحك، أبين لهم حقيقة الأشياء ...

دائما كنت أنصحهم بنصائح وأدفعهم للقيام بها، ولا أرتاح حتى أرى ابتساماتهم علت وجوههم، فيما أكون أنا أول من يحتاج لتلك النصائح، أنا أول من يجدر بي القيام بها، ولكني أنصح بها غيري ولا أعمل بها ..

لقد كنت أنا طبيبهم النفسي فيما كان عالمي مجرد أداة لإمراضي، كنت أكتم كثيرا بقلبي وكأني اتخذت قاعدة أن الطبيب يعالج الآخرين ولا يمرض ..

و لكن في ذلك اليوم لم أستطع الصمت أكثر، قررت أن أحكي، أن أفرغ ذلك العبء الذي بقلبي، ولكن ليتني ما فعلت ذلك، فبكل بساطة أخبروني أن ما أمر به مجرد أمور تافهة لا تستحق، إلا نادين التي حاوَلَت الحديث فأوقفنها، وواصلن كلامهن وضحكهن، فيما قمتُ أنا من مكاني، حملت حقيبتي

وغادرتُ المكان دون أن ألتفت لمناداتهن، فيما لحقت بي نادين، كانت الوحيدة التي أنصتت لي وأعطت قيمة لحديثي ....

لم تكن المرة الأخيرة التي يحدث معي ذلك، بل تكرر الأمر عدة مرات، حتى قررت إغلاق جميع الأبواب التي تربطني بهن، وضعتهن على هامش حياتي، لا لم أتخلى عنهن، بل أعدت ترتيبهن في حياتي، ولا أزال أستمع لمشاكلهن رغم أنها لم تكن أقل تفاهة من مشاكلي، وأسعى جاهدة للرفع من معنوياتهن، فلم يكن قلبي يرتاح حين أرمي بأحاديثهن عرض الحائط كما يفعلن في كل مرة، ولكن فقط لن أحكي لهن شيئا عن نفسي، لأني بكل بساطة قد أخرجتهن عن نطاق حياتي ...

هناك أشخاص لا يستحقون أبدا، فكل واحد منهم لا يعرف إلا نفسه ....

" الصمت ...

ذاك ما أصبح رفيقا لك، ولسبب ما اعتزلتَ الكلام، نعم، فالبشر لا يسمعون، وحين يتعلق الأمر بك فإن الجميع سيفقد حاسة السمع، ويكتسبون حاسة التجاهل والردود القاسية، لا تتعب نفسك معهم، فكل واحد منهم يقول نفسي نفسي ولا شيء غير نفسي، كل واحد منهم يرى أنه الوحيد الذي يحق له الكلام عن نفسه، أما أنت فمحرم عليك ذلك، لأن مشاكلهم هي التي تستحق، أما مشاكلك أنت مجرد تفاهة ..

لا يمكنك إخبارهم أنك حزين، لا يمكنك إخبارهم أنك تتألم، لأنهم سيخلقون من حزنك رواية هزلية يرويها الصغير والكبير.

لا يمكنك إخبارهم أن وديانا من الدموع تحتجب خلف ستار ابتسامتك لأنهم سيكذبونك ..

الكل سيسعى جاهدا في الأخير لجعلها تنسكب من عينيك ليجعلوك في الأخير مجرد مهرج صنعوا من ألمه حكاية هزلية مضحكة .. لن يشعروا بك .. صدقني .. "

" سأكتفي بنفسي ... أنا لنفسي ... ونفسي لي ...
سأسعدني وسأهتم بي، وسأجعل من نفسي صديقة مقربة
لي، فلا داعي لوجود تلك الظلال الخرافية حولي ...
يكفيني أن أنظر للمرآة وأحدث ذلك الوجه المنعكس هناك
... ابتسم .. فلا الحزن يروقك ...
سأضحك بأعلى صوتي دون وجود نكات ...
و سأرقص فرحا في صمت دون موسيقى
سأسرح بعقلي وأبتسم دون وجود ذكريات ..
و سأتحدث وأتكلم دون وجود رفيقة
سيقال عني شخص مصاب باضطرابات ..
و لكن أنا فقط من يعلم الحقيقة ...
سأسبح في عالمي لوحدي دون الحاجة لقواربهم التي تأخذ بي
لشواطئ بمعالم لا أرغب بها ...

جلستُ يوما بينهم فسمعت كل واحد يسخر من آلام الآخر..
يقولون تفاهة، فقط لأن لكل واحد منهم حياته الخاصة فلم يعش ما عاشه غيره ..
تقولون تفاهة ... فلتجربوا إذا تبادل الأدوار، كل واحد يحاول التأقلم بحياة غيره ...
حاوَلوا ... فرأيت الكل يركض هاربا من هول الموقف ...
أدركتُ أن كل واحد يقيس ما يمر به غيره حسب ما يعيشه هو دون تقدير الظروف، كل واحد لا يشعر إلا بنفسه، وفي الأخير يقولون تفاهة يا ناس، وما أدركوا أن التفاهة تكمن في عقولهم الغبية ... "

رجعتُ للبيت يومها سعيدة مبتسمة ..
عرفت أن الأحزان والمصائب لا تأتي إلا لسبب معين، ما هي إلا وسيلة لإدراك الكثير من الحقائق الخفية حولك ..
دخلتُ البيت مبتسمة وحكيت لأمي كل ما حدث، أخبرتها أن الحق كان في كلامها، فالحقيقة قد انكشفت عند أول مشكل حدث معي..

بعدها قمتُ بتصفيتهن جميعا، فخلف كل ابتسامة وحب كان يختبئ شخص حاقد شرير ..

فلا حاجة لي بشخص يسود وجهه وينقلب وتضيق نفسه ويتلعثم وينصدم فجأة بمجرد سماعه لخبر سعيد عني .. فكانت القاعدة اللعينة الأولى للصداقة الوهمية...

القاعدة الأولى تقول : صديقك الحقيقي من يتألم حين يرى ابتسامتك، صديقك الحقيقي لن يحتمل سعادتك، إن كان محطما سيتمنى دمارك، إن كان حزينا سيتمنى زوال سعادتك ...

لا حاجة لي بشخص يخرسني عن الكلام ويقول أن مشاكلي تافهة وبلا معنى ... إنها القاعدة اللعينة الثانية للصداقة الوهمية ..

القاعدة الثانية تقول : صديقك الحقيقي من يقدس حياته ومشاكله وما يعيشه ويرمي كل ما يتعلق بك بخزينة التفاهات ...

لا حاجة لي بشخص أقف إلى جانبه ليبعد نفسه عني عند حاجتي إليه... إنها القاعدة الثالثة ..

القاعدة الثالثة تقول : صديقك من يلجأ إليك وقتما شاء، وإن لجأت إليه سيغلق كل سبل الكلام في وجهك ...

صفات كانت تميز كل واحدة منهن، فحذفتهن من قاموس حياتي، ولم تتبقى لي سوى نادين ..
نادين التي كانت أكثر من أخت لي، إن رأتني أبكي على دمية فقدتُها في الثالثة من عمري فإنها تبكي معي ...
و إن رأتني سعيدة فإنها تبكي فرحا حتى لو كانت غارقة في بحر من الأحزان ...

كنت قد كفرتُ بوجود الصداقة الحقيقة في زمن كثر فيه النفاق .
صديقك الحقيقي من يفهمك من ملامح وجهك أنك لست بخير فيساندك دون طلب، لا من يحاربك ويكذبك، وأنت قد بلغت من الألم ما أغرق روحك ...

صديقك الحقيقي من يتأذي من أجل أن يراك سعيدا، لا من يتركك تغرق بحزنك ويفر هاربا حتى لا تفسد سعادته ..
الأشياء التي لا تحكيها وتتفنن في إخفائها بشتى الأساليب، ستترجم بكل حروفها بعينيك وعلى ملامح وجهك، لن يقرأها إلا من كان قريبا لك، فذاك من يفهم حروف صمتك، أما الباقي فإن حكيت وبكيت وصرخت فسيقولون تفاهة ...

أشخاص تجدهم في أوقات المزاح والضحك، وعند أول مصيبة تحل بك يختفون وكأنهم سراب مخادع، أشخاص كهؤلاء لا حاجة لك بهم أبدا ...

لقد تألمتَ لوحدك وبكيتَ ولم تجد حتى آثار أقدامهم، فما الحاجة لك بهم يوم ابتسامتك ...

تألمتَ لوحدك ولتُكمل فرحك وحدك، ولِتُقِم حفلتك لوحدك فلا فائدة من تواجدهم بوجوههم المزيفة حولك .

إنهم يريدون حلوى الحفل .. تبّا لهم ... أخبرهم أن المحلات مليئة بكل أنواع الحلويات، وليصرفوا من سعادتهم ثمنا لشرائها....

* * * * *

(8)

يحدث أن تمر بأماكن تُشْعِرُك أنك جزء من حياتك الماضية، تَشْعر أنك ستعيش بعد لحظات نفس الحدث الذي عِشته سابقا، تحس أن الزمن سيعيد نفسه، نفس المكان، نفس الجو، نفس التوقيت، وربما نفس الحدث، لتستيقظ فجأة على صفعة مؤلمة تنبهك أن هناك شيء ما ينقص ...

لقد غادروا المكان إذا، ولم يتركوا سوى مقاعدهم الفارغة تعزف مقاطع الذكريات دون توقف ...

كلما أمر بها تجعلني أتسمر مكاني، فأجلس على رصيف الانتظار في انتظار ما لن يأتي أبدا ..

لقد كانوا مقطعا سعيدا لسيمفونية حزينة عزفت على أوتار الماضي ولن تُعزف مجددا ...

رحلوا إذا ..

أصبحت الشوارع خالية رغم اكتظاظها بالناس، أصبح الصمت رهيبا رغم الضجيج والصخب حولي ...

ليْسَت كل الأمور التي تُبكينا سيئة، ليست كل الأشياء التي تجرحنا يسعدنا غيابها، ربما غيابها هو ما يؤلمنا ...

كيف أن الصمت الذي تركه صوت صراخهم قد جعل الأماكن تبدوا صامتة بشكل مخيف، بشكل رهيب لم أتحمله ..

رغم قسوة كلماتهم إلا أني اشتقت إلى صراخهم وضجيجهم ..

رغم خوفي الشديد من ملاقاتهم إلا أني كنت أجوب الشوارع كالمجنونة بحثا عنهم، ولكن لا أثر لهم ..

سوى أطياف مخادعة تتنكر لي في وجوه العابرين فيُخيل لي أنهم قد عادوا أخيرا، أتفرس وجوههم واحدا واحدا علني ألمحهم بين الحشود، فأتراءى للآخرين أني مجرد مجنونة تراقب الذاهب والراجع...

أسأل عنهم أي شخص أعرفه ...

أصبحتُ أبحث عنهم في خيالاتي ولكن لا وجود لأثرهم ..

و حتى في أحلامي لم يكن لهم وجود ...

و إن ظهروا فجأة في واقعي أو في حلمي، فلا يلبثوا أن يختفوا كسراب ...

لم تبقى سوى أماكن جلوسهم وطرقات سيرهم التي بقيت شاهدة على وجودهم يوما ما هنا ...

لا أزال أزور حينا القديم في كل مرة تسنح لي، فربما ألمح خيالهم مارا من هناك ولو من بعيد ..

لا أزال أراقب شوارع مدينتنا الخالية رغم يقيني التام بعدم وجودهم..

ليتهم يرحلون دون أن يتركوا أثرا، ليتهم يرحلون آخذين معهم ظلالهم وأطيافهم وآثار أقدامهم، ولكن الواقع صادم، فكل شيء بقي معلقا هنا وهناك، أشياء لا يمكن إزالتها فقد رُسِمَت بألوان أبدية لن يكون لها زوال ..

صراخهم .. جنونهم .. استفزازهم .. تصرفاتهم المضحكة .. تصرفاتهم القاسية .. وجوههم الغاضبة .. هروبهم من طريقي .. ابتساماتهم.. ضحكهم .. ملابسهم ..

كلها علقت بذاكرتي وتمَسَّكَت بجدرانها لتُلقي لي وعودا في كل مرة أنها لن تبرح ذاكرتي حتى يضمني قبري...

لن أنسى محطة القطار في تلك الأمسيات الهادئة، لن أنسى انتظارنا الطويل هناك، لن أنسى صافرته معلنا وصوله وكيف يركضون بين الحشود ليصلوا لباب القطار، نركب القطار، أنا في جهة، وهم في جهة، لا كلام بيننا، أخطف نظرات سريعة فأبتسم رغما عني ...

لن أنسى انتظارنا للحافلة في تلك الصباحات الماطرة، لن أنسى مرورهم بالقرب من بيتنا ...

ذهابهم ترك فراغا عظيما، كان ذلك الفراغ يعزف مقطوعات حزينة يتردد صداها بكامل شوارع المدينة، أغلق أذني، فتصدح داخل رأسي دون توقف .

كان الصقيع يلف قلبي رغم أنه بالداخل كان يحترق، قلبي رماد مغلف بثوب الجليد، في صراع بين ندم وحسرة وحنين لوطن غامض يرفض تواجدي بين شوارع أيامه ..

كانت مشاهد تلك الأحداث تمر على ذاكرتي كفيلم سينمائي قديم بهتت ألوانه ...

شيء يحدث مع الجميع ودون استثناء ، أحيانا تتشاجر مع أخ، أو صديق، أو قريب لك، ربما كانت حياتكم بأكملها مبنية على

الشجار، ربما هو المخطئ، هو من يطلق عليك تلك الكلمات كأنها رصاصات قاتلة ..

تكره تصرفاته، تكره كلامه ..

ولكن ماذا لو غاب هذا الشخص عنك فجأة ؟

ماذا لو رحل عن حياتك آخذا معه ضجيجه، وصراخه واستفزازه؟

فلو كان أخ لك فلن تطيق البيت يوما من دونه، لو كان صديقا أو أي شخص قريب لك فلن تتحمل يومك بغيابه ..و لكن .. فقط إن كانت له مكانة بقلبك ...

فهناك بين بعض الأشخاص روابط روحية لن تنقطع حتى لو تعرضت لزلازل و أعاصير و زوابع ..

* * * *

" أسدل الليل ستائره السوداء على كل ربوع حياتي ..

طغى الضباب الكثيف على تلك الشوارع المهجورة ..

أمشي لوحدي وسط الضباب أحاول إيجاد مخرج ما من هذه الأرض اللعينة ..

صمْت .. صمْت .. صمت ..

صفير رياح، أصوات أقدام دون وجود أصحابها .. ظلال تظهر في الأفق ..لعلهم هم، لقد عادوا ..أركض إليهم لأجدهم مجرد سراب مخادع ..فيعم الصمت من جديد، وأواصل طريقي في تيه لوحدي ..

أحمل بقلبي ما يحمله عجوز طاعن في السن .. عجوز تجرع من مرارة الحياة ما يعادل مئة وتسعين عاما ...

أحيانا يخيل لي أنهم هنا فقط، أمل صغير يخبرني أنه لا تزال لعودتهم طريق، ولكن لا فائدة من الإنتظار ..

لم يعودوا ولن يعودوا ولن يكون لهم وجود إلا بين شوارع ذاكرتي المدمرة.

أحفظ تواريخ الأيام بكل تفاصيلها ..و كلما يطرق تاريخ عام جديد أبواب عالمي أجد ذاكرتي متدثرة بلحاف الأمس، لعل السيناريو سيعاد وستكون لي فرصة لإصلاح بعض العقبات التي جعلت الفيلم يبدوا مأساويا، سأصلحها حتى لا يتأذى أحد، بعض الأدوار خطيرة ، ستهلك أبطالها من الضحايا والقتلة ...

سيُعاد نفس الحدث . نفس الحدث .. نفس الحدث .....
وفي الأخير حين ينتهي اليوم ويسدل الليل ستائره ، أجد أنه قد أعيد نفس اللاشيء لا أكثر ..
يجب أن أدرك جيدا أن ذاكرتي هي من تحفظ التواريخ أما الواقع فلا يحفظ شيء ..
علي أن أدرك أن التاريخ رحل آخذا أحداثه معه، والتاريخ الحالي ما هو إلا توأم له أتى لأخذ أحداث جديدة، فقبل أن أفكر في أنه نفس التاريخ، وجب علي أن أعرف أن هناك رقم ما يختلف، نفس اليوم، نفس الشهر، ونفس السنة مضاف إليها رقم أو رقمين أو عدة أرقام، فرق رقم بسيط ولكنه فرق دهر كبير مليء بالتغيرات....

"في ضياع أنا أترامى بين المد والجزر، بين الماضي الذي يأبى الرحيل، وبين حاضري الذي ينحرني، وبين المستقبل الذي يجرني جرا...
كفاك يا عالم، استرح قليلا، فهلا أخذت إجازة قصيرة تمنحني فيها بعض الهدوء ... أود فقط أن أتخلص من الضجيج الذي بعقلي، أريد فقط أن أتنفس، أريد فقط ذرة أكسجين تدخل

رئتاي لعلها تجدد روحي التي اختنقت، فما أتنفسه الآن هو فقط ذرات هيدروجين ممزوجة ببعض ثنائي أكسيد الكربون القاتل ...
أغرق بين تفاصيل رحلت، تفاصيل كان يجب أن تنسى بمجرد وقوعها ولكنها صاحبت ذاكرتي وأصبحت توأمها الروحي الذي لن يفارقها ..
تفاصيل عام مضى، عامين، ثلاث، أربع سنوات، والعام الخامس هيأ حقائبه مستعدا لدخول بوابة الزمان، فيما لا أزال مقيدة بمكان ما بزمن ليس له وجود ..
في تلك اللحظة أدرك أني لا أزال عالقة بالأمس، وأني لا أحيا حاضري، وإنما أنا مجرد عابر سبيل بهذا الزمن المهجور، وأن مكاني الأوحد لا يزال بين طيات زمن رحل ..

تائه أنت بين دروب هذه الحياة، تمشي ولا تعلم بالتحديد إلى أي اتجاه تقودك قدماك، هل أنت تتقدم نحو الأمام، أم أن أشباحا من عالم قد رحل بين طيات الزمان تجرك جرا نحو الوراء، لا بد وأنك تستقر في المنتصف اللعين، حيث تتهاطل عليك أوجاع وذكريات الماضي، وتعصف عليك مخاوف المستقبل المجهول، فلا مجال

للتقدم إلى الأمام، الظلام حالك ، لا مجال للرجوع إلى الوراء، فالأبواب موصدة لا مجال إذا للخروج هذه الدوامة الغامضة.

فما بال الذاكرة تأبى النسيان ؟

لا بد وأنها قد عقدت اتفاق خلد أبدي مع كل فجائع عمرك لتقيدك بأغلال الذكريات التي تمنعك من التقدم خطوة نحو أرض مستقبلك، اتفاق تم إمضاؤه بدموع قلبك دون الإكتراث لخبايا نفسك الملقاة بين أشواك الألم.

أشخاص استوطنوا ماضيك، و أذاقوك من السم، ومرارة الحياة ما يكفي لإزهاق روحك، ورغم ذلك تشبثتَ بحبل الحياة، وها أنت الآن حي على قيد الموت، فالكل يحسدك على ابتسامتك، ولا أحد يعلم أنها مجرد زيف كاذب مخادع لتداري به حقيقتك الهشة لا أكثر ..

الأمر صعب، صعب جدا أن تقف على زجاج مكسور ملون بدماء قدميك وأنت مبتسم بكل ثقة وهدوء ....

صعب جدا أن تقف حافي القدمين على جمر في محطة مهجورة تعلم أن مراكبها هُدمت ولم يتبقى منها سوى الحطام ، ولكنك تكذب ذلك وتستقر في مكانك في انتظار ما لن يأتي أبدا...

" تدور عجلة الزمن محملة بذكرياتها، وها هو التاريخ يعيد نفسه، لا شيء قد تغير إطلاقا، المكان نفسه ... التوقيت نفسه ... فعقارب الساعة تشير إلى نفس الساعة ... والدقيقة ... وربما حتى الثانية... الأشخاص نفسهم لا يزالون غرباء كما اعتدناهم ....

لا شيء جديد ولا شيء قد تغير إطلاقا ... بِغَض النظر عن دهر مليء بالتغيرات الجذرية ... بِغض النظر عن ضحكات عفوية وعن دموع ذرفناها قهرا ... عن أحداث جميلة وهمية وعن صدمات كادت ترتكب جريمة في حقنا ... عن تفاصيل حياة كتبناها بحبر وهمي على ورقة من خيال ... وعن أحلام رسمناها بألوان خرافية وعن انتظارنا لأشياء كنا نعلم منذ البداية أنها لن تأتي إطلاقا ... وعنوانها الأوحد هو المستحيل ... ولكن اخترنا المكوث طويلا في محطة انتظار مهجورة منذ الأزل ... ونحن نعلم أن قطارها الأوحد قد ظل طريقه بغير رجعة ...

بِغض النظر عن بسمات بريئة وأمنيات أوشكت على التحقق لكنها خذلتنا في آخر لحظة ... وعن أشياء زرعت بداخلنا أملا ورحلت ...بغض النظر عن كل التحولات التي حدثت حولنا والتي تركت كل شيء كما هو ولكن غيرت ما بداخلنا ...

أشعلت نارا ... قتلت نبضا ... أحيت أملا ودفنت أملا آخر ...

بغض النظر عن كل التناقضات التي أربكت خلايا عقولنا وقلوبنا بِغض النظر عن كل الحروب التي أخمدت إما بأمل وإما بألم آخر أشعل حربا جديدة ... عاد نفس اليوم ... وكل شيء أمامنا على طبيعته ولم يحرك ساكنا ... ولكن حدث خلل ما بداخلنا فقط ... أما الواقع فلا شيء قد تغير ...

فكل ما استخلصته أن قطارنا انطلق من محطة ... لكنه انحرف عن مساره ليسلك طريقا غريبا آخر ... ويعبر مدنا غريبة لا ينتمي إليها ... خاض فيها كل أنواع المغامرات والمآسي ... وهاهو الآن القطار يعيد توازنه ليعود للمحطة التي انطلق منها أول مرة ليجد كل شيء حوله كما كان ... ولكن القطار ما عاد مثلما كان ... فقد تحطم بعد خروجه من حروب لم يكن يجدر به الخوض بها ..."

أعلم أن أجمل أيامي لم تأتي بعد، فربما يخفيها عني القدر خلف تلك الأكوام الهائلة من خيبات الأمل، فلا داعي لأحدث ضجة بعالمي ثانية ..

سأتخلص من رماد ما علق بروحي من بقايا حروب الحياة، سأنثره من هنا وهناك حتى لا يجتمع شمله من جديد، وسأمضي في حياتي تاركة للقدر مصيري ...

*****

(9)

و في الأخير .. تغيرت، تغيرت جدا، فقد طردت كل تلك الآمال والأمنيات التي كانت معلقة على جدار حياتي تنتظر لحظة مناسبة لتتحقق، محوتها من حياتي ليس يأسا مني، وإنما لم أعد بحاجة إليها، ولو تحققت الآن لما التفت إليها حتى لو ركضت هي خلفي، فالأشياء التي تأتي متأخرة يصبح وجودها بحياتي كهامش أسود لا حاجة لي به ..

و أنا في السابعة من عمري تمنيتُ امتلاك لعبة أرنب صغير محشو بالصوف، وحين أصبحت في العشرينات من العمر وصلني طرد كتب عليه ... تحققت أمنيتك ...

فتحت الطرد لأجد الأرنب الصوفي ...

فأحيانا الأشياء التي طال انتظارها تأتي في وقت متأخر جدا، تأتي بعدما يتغير تفكيرنا وتتغير نظرتنا للأشياء حولنا، تأتي ولكن بعدما فقدت مكانتها في قلوبنا ..

و ها قد أصبحنا نخاف من حدوث أشياء كنا نتمنى يوما لو أنها تحدث ...

أواصل طريقي المظلم بلا أمل ..

فالأمل قد دفنته في مكان ما ونسيت مكان قبره ..

لكن رغم كل هذا، لا أزال أظن أن كل شيء سيكون بخير ..

لا يجدر بي أن أظن ذلك أبدا، نعم لن أظن .. بل يجب أن أكون على يقين بأن كل شيئ سيكون على ما يرام ..

حتى لو ازدادت الأمور سوءا .. فكل شيء بعدها سيكون بخير..

نعم إنها الحقيقة ...

لا تخف من اليأس والحزن، فقط اضحك في وجه كل شيء وستراه يفر هاربا ..فلا شيء يخيف الحزن واليأس من غير ابتسامة تحدي تعلن فيها عن انتصار قريب ..

بسجدة، بدعوة من القلب ، والكون سيشرق من جديد ..

أتساءل، ولأن تلك الأحداث لم تكن لصالحنا فلماذا استعمرت عالمنا ؟

أشخاص لن يدوموا لنا لماذا اقتحموا حياتنا فجأة ..؟

الأحلام التي بنيناها والأمنيات التي رسمناها لماذا رميت بتفكيرنا..؟

ما الفائدة من كل هذا ونحن في الأخير لن نربح شيئا سوى خيبة الأمل ..؟

الأشياء التي مرت على حياتنا كنسائم ربيع مسالمة ولم تخلف خلفها أثرا سوى عواصف شتاء مدمرة .. ولأنها لم تكن لنا فلماذا كان لها مرور بحياتنا أصلا ..

كثيرا ما كنت أتساءل، والآن أدركت حقيقة كل شيء، كل ما يحدث لنا ليس إلا تدريبا لمواجهة عقبات أكبر، ما هو إلا تدريب يجعل الأمور المخيفة بحياتنا مجرد تفاهات صغيرة لا تستحق ..

كل ما يمر بحياتنا يجعلنا نتفطن لأمور صغيرة بإمكانها تدمير عالمنا، ولولا ما مررنا به لما انتبهنا أصلا، ذلك مجرد تنبيه لنا لنستدرك أخطاءنا ونراجع أنفسنا ونتهيأ لما هو أكبر ..

يبعد الله عنا ما تمنيناه ليرزقنا بما هو أفضل ..

يبتلينا الله في حياتنا لنراجع أنفسنا فربما طريقنا خاطئ، يبتلينا ليختبر صبرنا وإن لم يرزقنا في حياتنا فسيكون رزقنا بالجنة حيث الحياة الأبدية .

فلماذا نتعلق بالدنيا وهناك نقطة في الأفق نقترب منها يوما بعد يوم، وحين نصل إليها لن يكون لنا وجود سوى تحت التراب..

لماذا نتعلق بالدنيا وهي زائلة، وننسى وجود الجنة حيث الحياة الأبدية .

لقد تحققت أحلامنا وأخذنا من الدنيا ما نريد، ثم ماذا، هل يرافقنا كل ذلك لقبورنا ..لن ترافقنا سوى الأعمال الصالحة التي سنخلد بها في جنة أبدية ..

أو أعمالنا السيئة التي ستلقي بنا في لهيب جهنم للأبد ... ودون نهاية .

فما أسعد إنسانا لم يرزق في حياته بشيء، وكانت الجنة رزقه بعد موته ..

وما أتعس إنسانا نال من الدنيا كل ما تمنى، وكانت جهنم حضنه حين لن يكون له من مجال لتصحيح الأخطاء ..

الحزن، والسعادة، أنت فقط من تتحكم في كليهما ..

حسنا، لقد أفرطْتَ في التفكير، أفرطت في تحليل الأشياء البسيطة وجعلتَ منها أمورا عظيمة، وكثرة الإفراط تجلب معها الكثير من الأشياء التي لا يحمد عقباها، كنوبة قلبية مفاجئة تزهق روح قلبك رغم استمرارية نبضه، فالتحليل المستمر للأشياء ينتج عنه وابل من الألم، والحسرة، والخيبة، والندم الذي لا دواء له سوى إعادة برمجة عقلك من جديد ...

أفرغتُ عقلي من كل تلك الأفكار السلبية التي حطمتني يوما، شغلت كل أوقاتي بالدراسة وبمطالعة الكتب والروايات، سأتخرج من الجامعة قريبا، سأعمل مدرسة أطفال بروضة المدينة كما كنت أحلم، وسيساعدني أبي وأخي كما وعداني على فتح مركز صغير وسط المدينة أستقبل فيه كل من حطمته الحياة وأذاقته من مرارتها ما جعلت منه إنسانا آخر، سأكون طبيبة لهم، ولن أرتاح حتى أرى ابتسامة أمل حقيقية ترتسم على وجوههم، لن أطلب منهم أموالا، فأن أخرج شخصا من كآبته، وأن أزيح عنه ما أرهق نفسه وحطم حياته أمر لن يتطلب مالا، بل تكفيني سعادتي برؤية ابتسامتهم وعودة الحياة لقلوبهم ...

سأعود للرسم مرة ثانية، سأكون رسامة مشهورة، سأشارك في كل تلك المسابقات والمعارض التي فاتتني وضيعتها بسبب حزني الذي جعلني كجثة هامدة وأعجزني عن تحقيق أي شيء، سأحقق حلمي قريبا ..

الأسبوع القادم سنتخرج من الجامعة أخيرا أنا ونادين بعد عناء طويل، لقد بذلنا مجهودا طوال العام ليكون كل شيء على ما يرام، سأقضي هذا الأسبوع لمراجعة بسيطة فحسب ..

مر الأسبوع سريعا، أتى يوم التخرج، وتحصلنا على شهادتنا أخيرا، لن أنسى فرحة عائلتي ودموع فرحهم، لن أنسى تلك السعادة التي كانت تشع من عيونهم، لن أنسى دعواتهم بأن يديم الله نجاحاتي في كل شيء، لن أقول أنه كان أسعد يوم بحياتي، ولكنه كان يوما رائعا جدا ...

اتصلتُ في المساء بنادين طالبة منها أن ترافقني للجامعة غدا، فقد كانت لي رغبة في زيارة الجامعة لآخر مرة بحياتي، أردت توديع ذكرياتي، توديع أحلامي التي لم يُكتب لها تاريخ ميلاد، توديع خمس صفحات من عمري ستَنظم الآن لمملكة الماضي، أردتُ الذهاب فحسب ...

ألححْتُ عليها بالمجيء معي لكنها لم تلبي طلبي، فلم تكن لها رغبة في الذهاب .. فكم آلمني ذلك و لكن عادي ، حزنت و لكن لم أغضب منها ..

" لا تجعلوا أشياء صغيرة تنسيكم في ما فعله الآخرون من خير لأجلكم ، لا تجعلوا موقفا صغيرا يُنسيكم دهرا من اللحظات الجميلة .."

و بالفعل استيقظتُ صباحا وقصدت محطة القطار ...

كان آخر يوم لي بالجامعة، ذلك اليوم الماطر الذي جعل ذكرياتي تتأرجح بذاكرتي دون توقف، آخر يوم أجوب شوارعها التي قضيت فيها ذكريات لا تنسى، ذكريات ممزوجة بألوان الأمل والألم، بألوان البسمات والدموع، لن أنسى تلك البسمات العابرة، لن أنسى تلك الضحكات، وألحان الغضب، لن أنسى مزاحي مع صديقاتي، لن أنسى ذكرياتنا التي رسمناها على جدران الجامعة بألوان لن تزول أبدا ...

جلستُ يوما كاملا تحت زخات المطر أراقب الأطياف المارة من هناك رغم انعدام وجودها، عشت الأحداث التي مضت حدثا بحدث رغم بعد زمن حدوثها، فالذاكرة أشبه بالدوامة الزمنية التي تجول بك في كل بقاع زمن غابر ليس له وجود بأرض الحاضر ...

رجعتُ للبيت مساءا ، وفي الليل قمت بتدوين كل أفكاري وما جال بخاطري طوال اليوم ...

الساعة تجاوزت منتصف الليل، أغلقت مذكرتي التي دونت فيها كل ما مر علي من حزن وسعادة، تحمل بين تفاصيلها كل ضحكة أمل ودمعة حزن مرت بحياتي، هذه المذكرة ما هي إلا ملخص لحياتي، كتبت فيه لغاية هذه اللحظة بالذات ...

قبل أن أضع رأسي على وسادتي، شردتُ على المنظر الذي تطل عليه نافذتي ..

فتحتُ النافذة على مصراعيها رغم برودة الجو، وتركت نسمات الرياح الباردة ترتطم بوجهي ..

نظرتُ إلى تلك الظلمات المخيمة بالخارج، رياح وأشجار، وطريق مهجور ... ثم يختفي كل شيء، و يظهر لي طريق جميل، وبيوت

لم يسبق لي أن رأيتها هنا من قبل، ولكني رأيتها في مكان ما ربما، ثم طيف يظهر لي في آخر الطريق يتقدم بخطوات هادئة تحت ضوء البدر، تلألأت السماء بنجوم ليالي الصيف، وشيء ما يلمع هناك، ربما نجمة أو شهاب ضاع من عالمه وحط بكوكب الأرض على ذاك الرصيف ...

نبضة قلب تتلوها غصة بقلبي، رغم ذلك ابتسمت ...

ريح غاضبة تدفع بالنافذة لترتطم على الجدار محدثة ضجة أفاقتني من شرودي، اختفى الطريق، الرصيف، البيوت، القمر والنجوم.. لتعود المدينة المعتمة لطبيعتها ...

تصبحين على خير مذكرتي ..

تصبحين على خير أحلامي ..

تصبحين على خير مدينتي القديمة ..

غفوت بعدها وغرقت في نوم عميق ...

أصوات غريبة تدنوا من مسامعي، ضجة كبيرة، كلام وضحكات عالية ..

كان الظلام دامسا بذلك المكان، والثلوج تتساقط ..

بدأ الصوت يبدوا أكثر وضوحا، أصوات طبول عالية، أصوات مألوفة لبعض الأشخاص، زغاريد عالية وضحكات، الطبول تقرع أكثر وأكثر ...

إنه عرس، ولكن عرس من .. ؟

شيء ما على الأرض وسط الملأ، اقتربتُ منه شيئا فشيئا ..

كان إنسانا ممددا على الأرض بلباس أبيض ..

سمعتُ الكل حوله يضحك ويقول .. مات .. لقد مات ..

ثم واصلوا عرسهم ..

اقتربتُ أكثر، لقد اتضَحَت لي معالم وجه ذلك الشخص، إنه ميلينا، ولكن من ميلينا ؟

لقد كنت أنا، نعم أنا ...

حاولتُ إيقاظ نفسي ولكن لم أستطع ...

صرخت باسمي بأعلى صوتي ولكن لا أزال ملقاة على الأرض دون حراك ..

استيقظتُ مفزوعة من هذا الكابوس والدموع تملأ عيناي، كنت سأصرخ بأعلى صوتي لأنادي شخصا ما ، ولكن عدتُ لوعيي في آخر لحظة، لقد كان مجرد كابوس لا أكثر، و لأول مرة يراودني كابوس كهذا ...

لقد كانت الساعة فجرا ، فقد استيقظتُ مع الآذان مباشرة قمت من مكاني، صليت الفجر، وشكرت الله آلاف المرات على كل المصائب التي مرت على حياتي، فلولاها لما عرفت حقيقة بعض البشر، لولاها لما أصبحتُ الآن بهذه القوة، كانت مجرد مصائب صغيرة علمتني دروسا كبيرة، دروس ستكون هي منقذي يوما ما من مصائب أكبر ..

استغفرتُ الله كثيرا لأني قد تعلقت كثيرا بالدنيا، وجعلت من نفسي إنسانا محطما بسبب أحداث لم تكن سوى امتحان من الله تعالى..

تعلقت بالدنيا، وتأثرت بمصائبها، ونسيت أن الدنيا هذه ما هي إلا مجرد دار ابتلاء، مجرد امتحان صعب طويل نخوض فيه أقسى المعارك، وسلاحنا الأوحد هو الصبر ..

تعلقتُ بالدنيا، وبكيتُ، وتعذبتُ، ونسيت أننا سنموت آخرا ولن يرافقنا سوى العمل الصالح، نسيت أن الحياة الأبدية التي لن تكون آخرتها موت هي التي تأتي بعد عودة أرواحنا لخالقها، وهناك إما أن نخلد في الجنة وإما في نار جهنم، وكل واحد يختار طريقه بأعماله الدنيوية ...

جلستُ تحت ضوء القنديل الخافت أتلو آيات من القرآن حتى بزغت الشمس وعادت الحياة للأرض بعد ليل طويل ...

شعرت برغبة في الخروج من البيت، ربما سأقصد نادين فقد اشتقت لثرثرتها ..

اتصلت بها، أخبرتها أني قادمة وأننا سنلتقي بحديقة المدينة ..

ودعت أمي وخرجت من البيت ..

كانت الأمطار تتساقط بهدوء ونسمات باردة تمر على وجهي، كان جوا يبعث الطمأنينة والارتياح في نفسي، مطر، مطر، مطر، فلا شيء أجمل من المطر وكوب شاي، اشتريت كوب شاي وواصلت طريقي .

انحرفَت قدماي عن طريقهما فجأة لأجدني أسلك طريقا آخر، لم أتوقف بل واصلت سيري إلى حيث تقودني قدماي، إنه طريق حينا القديم ...

شعرت بشوق شديد لذلك الحي الصغير الذي كان مدينة للأحلام في نظري، اشتقت لتفاصيله التي تركتها هناك وغادرتُ المكان دون أن يغادر هو أعماقي ..

اشتقت إلى مكان لعب الأطفال، وإلى تلك البقعة الترابية التي تتحول فجأة لبركة طينية ما إن صافحتها قطرات الأمطار ..

اشتقت لأعمدة الإنارة، اشتقت لطرقاته، واشتقت لساكنيه.. سكانه الذين لم تغب عني ملامح وجوههم وكأن الذاكرة رسمتهم في خيالي بألوان أبدية لن يكون لها زوال ..

بدأت معالم الحي تظهر لي رويدا، وابتسامة ترتسم على شفتي رغما عني، شعرت بشيء يؤلمني بقلبي ولكن لم أكترث، فقد تعودت على ذلك الألم ...

واصلت طريقي، أحسست أني سأعود جزءا من هذا المكان مجددا، شعرت أني سأدخل بيتنا القديم لأستقر عند تلك النافذة التي كانت مكاني المفضل، فحتى أمي أخبرتني يوما قبل رحيلنا بأن لا أنسى أخذ النافذة معي ...

ليتني استطعت أخذ كل شيء معي يا أمي ليس النافذة فحسب ..

واصلتُ خطواتي ..

صوتٌ ما يخترق مسامعي، صوت نابع من ركن معين بهذا الحي، من ذلك المكان الذي اعتدت المرور منه، صوت مألوف زارني يوما بأحلامي، ليس باليوم البعيد وإنما زارني فجر اليوم فحسب ..

اقتربتُ كثيرا، كانت أصوات الطبول مرتفعة، زغاريد تصدح بالمكان، الطبول تُقرع أكثر وأكثر، الموسيقى عالية ..

إنه عرس، نفس عرس البارحة، لكن لم يكن هناك ثلج، و لم أكن أنا بينهم كما رأيت في حلمي ..

لقد كانوا سعداء جدا، لأول مرة رأيت البسمة والضحكات على وجوه بعض الأشخاص، رأيت بريق السعادة يشع من عيونهم ..

إنهم يحتفلون يا نادين، إنهم يرقصون، يضحكون، ليتك كنت معي يا صديقتي، لتري تلك الضحكات التي غابت منذ زمن، وتلك السعادة التي ظننت أنها منعدمة ولكن الحقيقة أنها كانت ترقد بأعماقهم تنتظر اللحظة المناسبة للظهور ..

عرس... جنازة ... زفاف... موت...

كثير من الموت وكثير من الحياة التقيا .. مصيرين امتزجا ببعضهما.. عرسهم جنازتي، موتي حفلهم، هل هو حفل جنازة أم مأتم عرس.. لا أعلم ..

أريد أن أكتب لكم ما تراكم بداخلي خلال أربع سنوات مضت من عمري، أريد أن أشرح لكم حقيقة الأمور، أريد أن أنبه كل شخص إلى خطئه دون جرحه، أريد حذف كل تلك الرسائل القاسية حتى لا تبقى ذكرى جارحة لكم، أريد أن أرجع لأمحي

أثري من ذلك العالم، أن أمحي خطواتي من طرقات أشخاص كنتُ مصدر إزعاج لهم ..

أريد أن أرجع للوراء لأخبركم كم كانت كلماتكم القاسية تؤلمني، رغم ذلك لم أكرهكم، لقد كنت أكره كلامكم وتصرفاتكم الجارحة لم أكن أكرهكم أنتم ..

أريد أن أرجع للوراء لأطلب منكم الإبتسام ولو ابتسامة عابرة، أن أخبركم أن ملامح وجوهكم الغاضبة كانت تخيفني ورغم ذلك كنت أراها بريئة ...

سامحوني فقد كانت كل الكلمات التي أود قولها لا تبرح قلبي حتى أصبح قلبي قبرا لكل ذلك الكلام الذي لم أصرح به لأحد، لتتحول في الأخير إلى مرض فتك بشرايين قلبي ...

لن تكفيني حتى ثلاث سنوات لأكتب كل شيء ولأفعل كل شيء..

الألم بقلبي يتفاقم، لعله الأمر الذي طالما حذرني منه الطبيب ..

أشعر بثقل في كامل جسدي، أحس بي أني أتهاوى، دقات قلبي تضعف وتتباطأ ، لم أعد أقوى على ثقل القلم بين أطراف أصابعي المرتجفة، لا يمكنني مواصلة الكتابة، الأمطار تتهاطل بغزارة، المذكرة ستتلف، سأكتفي بكلمة واحدة فقط .. أنا ...

* * * * * * *

نادين :

جلستُ في حديقة المدينة أنتظر ميلينا، كان يجدر بها الوصول قبل نصف ساعة من الآن، انتظرتُ طويلا ولكن لا أثر لها، اتصلتُ بها مرارا وتكرارا ولكنها لا تجيب ...

تملكني خوف رهيب عليها، ليس خوف بل رعب ، هل سأقصد بيتها، هل سأجوب الشوارع بحثا عنها ؟؟

ما الذي سأفعله، اتصلت ببيتها، أخبرتني زوجة أخيها أنها غادرت البيت قبل ساعة ...

شعرتُ بفشل يسري بكامل جسدي، إلى أين ذهبتِ يا صديقتي ؟

رقم غريب يتصل، ربما هي ميلينا قد نفذ رصيدها كالعادة فاتصلت بي من هاتف عمومي ...

أجبت على المتصل، صوت غريب غير صوت ميلينا، طريقة كلامه لا تبشر بالخير، كلماته نزلت كالصاعقة علي، كلماته جعلتني أصرخ صرخة عالية دوت بكامل أرجاء المدينة جعلت الكبير والصغير يلتفت إلي ..

انطلقتُ أركض وأركض وأصرخ وكأني مجنونة فقَدَت عقلها، لم أُجن فقط، أصبحتُ أكثر من ذلك ..

وصلتُ إلى المكان المنشود، حشد كبير من الناس مجتمعين، سيارة الإسعاف قادمة من بعيد .

ركضت، وركضت، وركضت حتى وصلت، ويا ليتني مت قبل ذلك ..

صديقتي ميلينا، بل أختي التي عشت معها كل سنوات عمري، ترقد على الأرض تحت المطر دون حراك ..

وجهها كان شاحبا، شاحبا جدا وكأنه يخلوا من أي قطرة دم، يداها باردتان كالصقيع، فلو وُضع بهما ماء دافئ لتجمد ..

صرختُ بها بأعلى صوتي، حركتها يمينا وشمالا، ولكنها كانت جثة لا تتحرك ..

وصَلت سيارة الإسعاف، حُمِلت و وُضِعت بالداخل، ركبت معها، استدرت قبل أن أركب لألقي نظرة على المحيطين بي، لباسهم يوحي أنهم كانوا بحفل زفاف، وحتى ملامحهم لم يرتسم عليها ولو أثر صغير للتأثر بحال صديقتي، بالعكس فقد كانوا مبسوطين لأقصى درجة ..

بقيت ممسكة بيد صديقتي، أبكي بكاء حاد كما لم أبكي من قبل المسعفون يهدئونني ويخبرونني أن كل شيء سيكون بخير، فقلبها لا يزال ينبض ولكنه ضعيف جدا، هي تحتاج للهدوء فقط حتى تعتدل دقات قلبها ..

حبست دموعي، وكتمت صراخي بصعوبة، وأنا أدعوا طوال الطريق أن تقوم بسلام ..

****

ميلينا :

الجو هادئ جدا هنا.. كأنه الربيع، بسمات تنشر السرور بداخلي وكأنها تبعث لي بحياة جديدة، من نافذة غرفتي يقابلني شارع مظلم ليس به سوى طيف مار من هناك بخطوات هادئة تحت ضوء البدر، صوت القطار يعلو من مكان ما، أنا الآن في محطة القطار، الأمطار تتساقط، ووجوه مبتسمة حولي، سعيدة أنا، أجل سعيدة ..

أنا الآن أنتظر الحافلة في ذلك الحر من منتصف نهار أحد أيام رمضان، تأخرت الحافلة كثيرا، مشيت فجأة بخطوات مترددة

لأقف إلى جانب ذلك المقهى، الأمر رائع فقد كان المقهى مغلقا، سعدت حتى بذلك الظل الذي وقاني من حر ذلك اليوم الصيفي المشمس ..

صراخ عالي من زمن مجهول جعل المقهى يتهدم على رأسي.. ركضت مكسورة اليدين من هنا وهناك ..

لتأخذني بوابة الأحلام إلى شاطئ هادئ، أنا وبعض الوجوه المألوفة هناك ، وطفل صغير لا يشبه ابن أخي كثيرا ولكنه كان بنفس عمره .. نلعب بالماء .. نركض .. نضحك .. على شاطئ البحر..

امتزجت ضحكاتنا بضحكات عالية، تلاها قرع طبول و زغاريت، وظلام .. وثلوج .. وعاصفة .. صرخت وصرخت وصرخت حتى كادت أوتار صوتي تتمزق ...

شعرت بنفسي أتهاوى من مكان عالي في فضاء مظلم ممتد بلا نهاية، لأرتطم بشيء ما، شيء أنام عليه الآن ..

أصوات غريبة من حولي لم أتمكن من تمييز أصحابها، رائحة مقززة، بصعوبة أحاول فتح عيني، كل ما حولي يغطيه ضباب كثيف، المكان يعمه الهدوء إلا من أصوات كأنها أصوات أجهزة ما، وبعض الأشخاص يتهامسون من حولي، وأخيرا اتضحت

الرؤية، جدران بيضاء ليست كجدران غرفتي سرير أبيض، أشخاص غرباء حولي بلباسهم الأبيض يبتسمون لي ، أنابيب مصل موصولة بأطرافي ، شيء مزعج وضع على فمي وأنفي، صوت جهاز ما بالقرب مني، تلك الرائحة المقززة عرفت مصدرها، إنها رائحة المستشفى التي لا أطيقها ...

صوت نادين صديقتي وأمي، أبي، أخي ووزوجته، جدي وجدتي، الكل كانوا هنا، يبكون ويتكلمون، لم أفهم شيئا مما كان الجميع يهذي به ...

****

نادين :

رقدت ميلينا على سرير المستشفى دون حراك، جهاز قياس دقات قلبها كان يصدر إشارات ضعيفة، ضعيفة جدا ..

رأيت ميلينا وهي تبتسم فجأة، ثم تتحرك، ثم تختفي ابتسامتها لتحل مكانها ملامح خوف أو حزن، كانت تعابير وجهها تتغير وكأنها تتابع فيلما ما لحظة بلحظة ..

رأيت فجأة الدموع تنسكب من عينيها، ثم تحرك رأسها من هنا وهناك وهي تحاول الصراخ، لتفتح عينيها فجأة ...

ابتسَمت لي وقالت بصوت منخفض واهن لا تكاد تُفهم حروف كلماتها :

لماذا أنا هنا، متى سأعود للبيت ...

ثم أخذَتْ تقص علينا ما رأته أثناء غيبوبتها القصيرة التي كانت كدهر بالنسبة لنا ..

أمسكتُ بيدها وأنا أصغي إليها بكل اهتمام، حفِظت ما قالته لنا حرفا حرفا، طلَبتْ مني حقيبتها التي أخرجتْ منها مذكرة قدمتها لي بيد ضعيفة مرتعشة وقالت بصوت متقطع : اكتبيها يا نادين.. اكتبيها حتى تتضح بعض الحقائق للكثير من الناس ..

ابتَسَمت لنا ابتسامة مشرقة رغم بريق الألم بعينيها، ثم دمعة فرت من عينها لتعبر خدها وتستقر على وسادتها، ثم تمتمت بكلمات ما، لقد نطقت بالشهادة، أغمضَت عينيها ورحلَت في نوم عميق ...

أغمضَت عينيها في تلك اللحظة ولم نكن ندري أنها لن تفتحهما مرة ثانية، لقد نامت ولم نكن نعلم أن نومها سيطول ويطول ولن تستيقظ منه أبدا، رحلت في سبات ولم نكن نتوقع أن سباتها سيكون أبديا ..

لقد كانت آخر مرة نسمع فيها صوت ميلينا، آخر مرة نرى فيها ابتسامتها، آخر مرة نسمع لثرثرتها التي رحلت معها وتركت فراغا كبيرا.

لقد رحلت ميلينا عن هذه الحياة، رحلت تاركة أحلامها وآمالها من دون مرافق، رحلت تاركة ذكريات لا تنسى، ذكريات جميلة تجعل القلب ينزف ألما، انقطعت ثرثرتها وكلامها، رحل صوتها وكلامها، ولم يتبقى سوى ذلك الفراغ الذي لن يملأه أحد ...

كان ذلك اليوم أسوأ وأقسى يوم مر بحياتي وبحياة أهلها، لن أنسى صراخنا في المستشفى عند رؤيتنا لجهاز قياس نبض قلبها وهو يتوقف، لن أنسى دموعنا التي كادت تجف، لن أنسى تلك الأيام التي تلت رحيلها، لا أعلم كيف يمكنني وصف الوضع، لم أجد كلمات مناسبة لأعبر عما حل بنا إثر تلك الفاجعة، كان الوضع أكثر من جحيم ...

تعجبتُ لتلك الوجوه التي صادفتها بجنازتها، تلك الوجوه اللئيمة التي أتت من أجل العزاء، تلك الوجوه التي أحاطت بي لتخفف عني وتتظاهر بالتأثر بموتها، كنتُ سأصرخ بوجوههم، كدت أن أقيم حربا على رؤوسهم ...

في حياتها ظلموها، حطموها، حسدوها، حاولوا قتل أحلامها، زينوا أيامها بدخان أسود يحجب عنها رؤية الأشياء، ضحكوا عليها، تكلموا في ظهرها ظلما، أمرضوها، والآن بعدما غادرت الحياة أتو بوجوههم المزيفة التي لا تزال معالم الحقد مرسومة عليها ...

و لأننا جميعا سننتهي بذلك الشكل، ولأن حياتنا ستكون نهايتها قبرا يظم أجسادنا، ولأننا سنرحل جميعا ولن نأخذ شيئا سوى أعمالنا، فلماذا تسارعون في إيذاء غيركم، لماذا تحرمونهم من سعادتهم، هل فقط لأنه ليس لكم نصيب منها، هل سعادة الغير ستوقف حياتكم، هل رؤيتكم لهم وهم يعانون سيزيد من أرزاقكم ؟ ها قد رحل ذلك الشخص للأبد، أخبروني فقط ما الذي جنيتموه من أعمال شركم ...

رحلت وتركت لي تلك المذكرة التي دونت فيها كل لحظات حياتها .

رغم أني كنت صديقتها المقربة إلا أني لم أكن أعلم أنها كانت تعاني لتلك الدرجة ، كلماتها المكتوبة كانت تقتلني، رغم كل ذلك كانت دوما تضحك، تبتسم، تتظاهر بالقوة، لم أكن أعلم أنها كانت ترفض البوح لي بأوجاعها فقط حتى لا ترهقني معها، لم تكن تبوح لي حتى نمضي أيامنا سعداء دون حزن يعكر مزاجنا ...

* * * * * *

(10)

ميلينا :

كنتُ كلما مررتُ بموقف قاسي أحسست بألم في قلبي، لم أُعِر الأمر أهمية في البداية، ولكن بعدما تفاقم الوضع وزاد الألم قررت زيارة الطبيب ...

أخبرتني الطبيبة أن ما يحدث معي هو نتيجة لزيادة ضربات القلب وارتفاع ضغط الدم الذي أدى لتقطع شرايين قلبي، أخبَرتني أن الشعور بآلام القلب المتكررة ولفترة طويلة عند القلق والحزن يشير لوجود نوبة قلبية، وهذه أحد الظواهر التي تحدث نتيجة الضغوطات النفسية، والقلق، والحزن، والإكتئاب، فأغلب أعراضها كانت متواجدة عندي ...

أخبرتني أنه علي الابتعاد عن كل ما يدفعني للحزن، أن أبتعد عن كل ما يسبب لي ضغطا ..

و كان هذا هو السبب الذي جعلني أتغير للأحسن، فقد عودت نفسي على تجاهل كل المواقف التي تؤدي لانهياري، جعلتُ من التجاهل رفيقا لي، حاولت وحاولت حتى تعودت، حتى باتت جميع الأمور التي حطمتني تبدو في نظري تافهة..

الذاكرة كانت تحفظ وتتذكر كل شيء، ولكن قلبي كان يصارع ويحارب من أجل البقاء..

أصبحت أفكر بمنطق الموت لا بمنطق الحياة، نعم فالحياة ليست أبدية، فلكل شخص تاريخ معين، تاريخ مضبوط بالساعة والدقيقة، والثانية، تاريخ سيكون شاهدا يوما ما على رحيله من هذا العالم، فلماذا نرهق نفوسنا في التفكير وتعذيب أرواحنا ما دامت نهايتنا موت، والأكثر من ذلك أن أقدارنا مسطرة في طريقنا فلا حزن مبدل لها ولا دموع ...

اكتشفت ذلك في وقتت متأخر جدا، في وقت أصبح فيه قلبي هشا لا يتحمل شيء ، اكتشفت ذلك بعدما مرض قلبي وتلف النصف الأكبر من شراييه جراء تلك الضغوطات النفسية، فرغم صمودي ورغم مقاومتي لكل شيء إلا أن القلب لا يمكن التحكم باضطراباته و مشاعره ، لذلك كنت ألهي نفسي عن كل شيء بإمكانه أن يبعث لي طاقة سلبية ..

لا أدري إن كنت سأعيش وأحقق كل ما حلمت به يوما، لا أعلم إن كنت سأعيش لأرى كل الأمور تتغير للأفضل، لتتصلح الأمور بيني وبين من خاصمتهم، لأرى ابتسامتهم التي ستقتل إحساسي بالذنب بسبب تصرفاتي المتسرعة التي كانت قاسية

بطريقة ما فلم ألحظها إلا بعد مرور زمن، لا أعلم إن كنت سأعيش لذلك اليوم الذي يعرفون فيه حقيقتي ويغيرون نظرتهم القاسية تجاهي ...

لا أعلم إن كنت سأعيش أم أني قريبا سأكون جزءا من التراب.

الموت صائد يترصد أرواحنا في صمت، يتبع خطانا دون إحداث ضجة، يترقبنا في انتظار اللحظة المنشودة ليرحل بنا، يزورنا دون أن يطرق الباب، ويأخذنا دون أن يسألنا ما إن كنا نود الذهاب أم لا...

فإن أتى الموت فمرحبا به، فأنا راضية بعدد السنوات التي كتبها الله لي لأعيشها ...

صحيح أن الموت قدر، ولكي يأتي فإن الأسباب تكون مختلفة من شخص لآخر، ولكن فقط لا ترسموا أنتم السبب بأياديكم .

تأكد أن الحياة ما هي إلا دار اختبار، ارحموا نفوسكم قليلا، فلا شيء يستحق لترهق نفسك بسببه، راجع أفعالك وتصرفاتك فالله يراقبك في كل خطوة تخطوها، راجع علاقتك مع الله فربما هناك خيط متقطع يجدر بك إصلاحه ...

* * * *

... لا تُتعب نفسك في كسب محبة أحد، فمن كرهك منذ البداية فسيراك مملا ومزعجا رغم أنك عكس ذلك بالنسبة للآخرين، من يكرهك ستكون له نظرة وتفسير سلبي لكل أفعالك مهما كانت ..

.... أحيانا نتغاضى عن أخطاء الغير ليس ضعفا منا، وإنما حتى لا نشوه صورتهم الجميلة التي رسمناها في أذهاننا ..

.... بعد التجارب التي تمر بها في حياتك، سيكبر عقلك، لن تدخل في نقاشات وجدالات وكلام، لأنك قد تعلمت أن راحتك أولى من أن ترضي عقولا فارغة لن ينفع معها أي كلام.

.... ستكبر يوما ما لدرجة أنك تكتفي بمراقبة الأشياء التي تحبها من بعيد، لأن الدروس القهرية في الحياة علمتك أن القليل من القرب يجلب الكثير من الشقاوة، والكثير من القرب يجلب الكثير من الدمار .

.... لا تحاول إقناع أحد بنسيان أو كره شخص، أو شيء ما.. فالنسيان يأتي بقناعة من الشخص نفسه لا من كلام الغير.. فالمشاعر ليست قرار ، و إنما هي أحاسيس خارجة عن إرادتنا، فما تراه أنت سهلا ... يراه غيرك في شدة الصعوبة .

.... لا تحكم على إنسان من مظهره، فالمظاهر خداعة ، فكم من شيطان يرتدي ثوب البراءة، وكم من بريء يراه الغير بنظرة سلبية، فمن يحكمون على المظاهر كم ظلموا من بريء وكم رفعوا من شأن تافه لئيم .

.... أعمارنا في العشرينات، تصرفاتنا كطفل في السابعة العمر، وقلوبنا كقلب عجوز تجاوز المائة والخمسين عاما من البؤس و الألم والدمار ... لكن عادي ، تفاءلوا، فأن تعيش دهرا من المعاناة تليه لحظة سعادة تدمر كل ما عشته من خراب، أفضل من أن تعيش حياتك سعيدا لتأتي في النهاية لحظة غير متوقعة لإعصار يدمر كل أمل .

.... تأثراتنا وأحزاننا على أشخاص ما وحبنا لهم ليست مرتبطة أبدا بمدة كلامنا معهم وزمن معرفتنا لهم، وعدد مرات رؤيتنا لهم، وإنما متعلقة بمكاناتهم في قلوبنا، فشخص تعرفتَ عليه منذ يوم فقط قد تكون مكانته أعلى في قلبك من شخص تعرفه منذ صغرك، فلا تهزؤوا بكلام ومشاعر الغير .

.... أحيانا من يرانا يظن أننا الأسعد على وجه الأرض، دون أن يعلم أننا فقط في محاولة يائسة لإحراق ذلك الحزن الكامن في أعماقنا.

.... أراد أن يغرس شجرة تفاح، فزرع قمحا، وحين نبتت السنابل انصدم ولعن حظه ألف مرة ... كثيرا ما نود شيئا، فنتصرف عكس ما تمليه علينا قلوبنا وعقولنا، ونبوح بما لا تفيض به أعماقنا، ثم ننتظر نتيجة تُرضينا، فلا داعي للحيرة إذًا ما دُمتَ أنتَ من بدأت في نسج بداية مخالفة لِما ترغب به .

.... كانت الحقيقة واضحة منذ البداية ، فقط أنا من تغابيت، رسمتُ أمامي كما هائلا من الأوهام الجميلة وأجبرتُ نفسي على تصديقها، مدارية الحقيقة القاسية تحت لحاف هش من التناسي .. هكذا نحن، نتغابى أحيانا عن فهم حقيقة الأشياء فقط حتى نعيش سعادة ولو كانت مزيفة ...

.... آسفة على كل كلمة قاسية أو تصرف بدر مني، فالحياة قد جعلت مني شخصا آخر لا أعرفه .

.... كلما تذكرتُ كلماتي القاسية بكيت، ولكن لا أحد رأى دموعي فأنتم رأيتم قسوتي فحسب .

.... خطوة واحدة ستمكننا من الرحيل عن الأشياء، ولكن المشكلة هل سترحل هي من داخلنا، لا لن ترحل، فكلما زاد البعد زاد توغلها بأعماقنا أكثر وأكثر .

.... أخطأت أنا واعتذرت أنا، أخطؤوا هم واعتذرت أنا، لم أنتظر أن يعتذر مني أحد، انتظرت فقط لعل شيئا ما قد يتغر، فتغيَّرتُ أنا وتغَيرَتْ حياتي ... ولم يتغير أحد .

.... نحن لا نكرههم، نحن فقط نتأذى من تصرفاتهم ...

.... اشتقت إليكم كثيرا، أتمنى أن تكونوا بخير، وسامحوني على كل شيء .. آخر الرسائل ..

.... سيبقى كل شيء راسخا في ذهني لآخر يوم بعمري، لكني سأبتسم بدل أن أبكي، فهناك حقائق سعيدة محتجبة خلف كل حدث قاسي ..

مطر ... ابتسامة ... كوب قهوة ... صوت القطار ... برد ... موسيقى ... نوفمبر ... مجرد أوراق هشة مركونة بأدراج الذاكرة ...

النهاية

أكتوبر 2019

حساب الكاتبة على فايسبوك :

Imène Chami

Https://www.facebook.com/imene.chami.18

صفحتها على فايسبوك :

Imène chami - إيمان شامي

Https://www.facebook.com/imene.chamii

حسابها على أنستغرام :

@imene_chami

Https://www.instagram.com/imene_chami